

الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث

وهي دراسات تحليلية للعوامل الفعالة في النهضة العربية الحديثة
ولظواهرها الأدبية الرئيسية

أبّس النخوري المقدسي

استاذ الادب العربي في جامعة بيروت الاميركية
وعضو المجمع العلمي العربي

الطبعة الاولى

3602
188

الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث

وهي دراسات تحليلية للعوامل الفعالة في النهضة العربية الحديثة
ولظواهرها الأدبية الرئيسية



أنيس نخوري المقدسي

استاذ الادب العربي في جامعة بيروت الاميركية
وعضو المجمع العلمي العربي

الطبعة الاولى

الجزء الاول

وَبِتَنَاولُ يَقْظَةُ الشُّعُورِ الْقَوْمِي فِي الْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ مِنْذَ أَوَاخِرِ الْحُكْمِ
الْعُثْمَانِيِّ حَتَّى عَهْدِنَا الْإِسْتِقْلَالِي الْآخِيرِ الَّذِي تَمَّ فِيهِ انْشَاءُ
جَامِعَةِ الدُّوَلِ الْعَرَبِيَّةِ تَتَوَلَّى النِّظَرَ فِي شُؤْنِهِمْ
الْعَامَّةِ وَالِدِفَاعِ عَنْ مَصَالِحِهِمُ الْمَشْتَرَكَةِ .
وَمَا حَرَّكَ ذَلِكَ فِي نَفُوسِهِمْ مِنْ
خَوَالِجِ نَثْوِيَّةٍ وَشَعْرِيَّةٍ .

جَامِعَةُ بَيْرُوتِ الْإِمِّيَّةِ

مَنْشُورَاتُ كَلْبَةِ الْعُلُومِ وَالْأَدَابِ



سِلْسِلَةُ الْعُلُومِ الشَّرْقِيَّةِ :

الحلقة الحادية والعشرون

21 c. 227

سلسلة العلوم الشرقية

- (١) - (٣) مجموعة الاصول العربية لتاريخ سوريا في عهد محمد علي باشا
للدكتور اسد رستم المجلدات الاول والثاني والخامس . سنة ١٩٣٠ - ١٩٣٣
- (٤) امراء غسان لثيودور نولدكه . ترجمة الاستاذين بندي جوزي وقسطنطين زريق
سنة ١٩٣٣
- (٥) مجموعة الاصول العربية المجلدان (الثالث والرابع) . سنة ١٩٣٤
- (٦) اليزيدية قديماً وحديثاً للامير اسماعيل جول
نشره الدكتور قسطنطين زريق
سنة ١٩٣٤
- (٧) عمر ابن ابي ربيعة للاستاذ جبرائيل جبور . الجزء الاول : عصره
سنة ١٩٣٥
- (٨) اسباب الحملة المصرية على سوريا كما تظهر في سجلات عابدين الملكية
للدكتور اسد رستم
سنة ١٩٣٦
- (٩) تاريخ ابن الفرات : لناصر الدين محمد ابن عبد الرحيم ابن الفرات
المجلد التاسع ، الجزء الاول . نشره الدكتور قسطنطين زريق
سنة ١٩٣٦
- (١٠) تاريخ ابن الفرات : المجلد التاسع ، الجزء الثاني . حققه وضبط نصه
الدكتور قسطنطين زريق والدكتور نجلا عز الدين
سنة ١٩٣٨
- (١١) الاضطرابات في فلسطين سنة ١٨٣٤ كما تظهر في سجلات عابدين الملكية
للدكتور اسد رستم
سنة ١٩٣٨
- (١٢) ديوان ابن الساعاتي . نشره الاستاذ انيس المقدسي . الجزء الاول
سنة ١٩٣٨
- (١٣) عمر ابن ابي ربيعة : للاستاذ جبرائيل جبور . الجزء الثاني : حياته
سنة ١٩٣٩
- (١٤) تاريخ ابن الفرات : المجلد الثامن . حققه وضبط نصه الدكتور
قسطنطين زريق والدكتور نجلا عز الدين
سنة ١٩٣٩
- (١٥) العوامل الفعالة في الادب العربي الحديث للاستاذ انيس المقدسي
سنة ١٩٣٩
- (١٦) ديوان ابن الساعاتي . نشره الاستاذ انيس المقدسي . الجزء الثاني
سنة ١٩٣٩
- (١٧) تاريخ ابن الفرات : المجلد السابع . حققه وضبط نصه
الدكتور قسطنطين زريق
سنة ١٩٤٢
- (١٨) الكواكب السائرة باعيان المئة العاشرة . الجزء الاول
حققه وضبط نصه الدكتور جبرائيل جبور
سنة ١٩٤٥
- (١٩) معجم الالفاظ العامية في اللهجات اللبنانية للدكتور انيس فريجه
سنة ١٩٤٧
- (٢٠) الكواكب السائرة الجزء الثاني حققه الدكتور جبرائيل جبور
سنة ١٩٤٩

الى القراء

هذه محاولة جديدة في درس الادب الحديث يراد بها تحليل العناصر المختلفة التي يتألف منها جوّن الادبي والرجوع الى الاسباب التي اثارت امواجه العاطفية والفكرية. وهي محاولة شاقة فالباحث الرائد لا يرى حوله الا ادغالاً مشتبكة لا طرق معبّدة فيها ولا معالم واضحة . وقد كابد المؤلف من ذلك ما لا يعرفه الا زملاؤه من رواد هذه المباحث وكانت مهمته ان يقرأ آثار النهضة الادبية الحديثة - غثها وسمينها - المشهور وغير المشهور منها ثم ينظّم من ذلك كله ما يعكس التطورات الاجتماعية والسياسية والفكرية ويقابله بما ورد من اقوال الباحثين السابقين وما تثبّت من احاديث المعاصرين فضلاً عما عرفه باختباره وكان له اثره الخاص في نفسه .

وقد نهى له في هذا السبيل شيء كثير من مطبوع ومخطوط ومن مؤلفات منشورة واوراق خاصة . بيد انّ ذلك لم يظهر منه في كتب المراجع الا ما اعتمده مباشرة لشاهد او عبارة مقتبسة وهو لا يزيد عن نصف ما دعت الحاجة الى مراجعته .

وبما لا بد من ذكره ان معظم الفصول الواقعة تحت باب « الاتجاه القومي » كانت قد نشرت حلقات متتابعة في المجلدين الثالث والتسعين والرابع والتسعين من مجلة المقتطف بعنوان العوامل الفعالة في الادب العربي الحديث . وقد تكرم رئيس تحريرها يومئذ بكلمة في هذه الفصول تثبت منها الفقرة التالية : « ومن بواعث اغتباط المقتطف ان اتيج له نشر هذه الفصول النفيسة الممتازة بالتقصي الدقيق والانصاف والتحليل العلمي والتاريخي ووصف تقلب الحالة النفسية في الشعوب العربية خلال الفترة التي تناولها ولا يخفى على القارئ المتبصر ما تكبده الاستاذ المقدسي من مشقة في مراجعة الصحف والمجلات لاستخراج ما نشر فيها من انباء النهضة القومية العربية في شتى مراحلها وما قيل فيها من الشعر ثم في مراجعة الدواوين العربية التي طبعت ونشرت في مصر

وسوريا ولبنان والعراق والمهاجر الاميركية فجاءت هذه الفصول « ديوان النهضة العربية » او هي مهدت الطريق لوضع هذا الديوان .

وها نحن نقدم للذين يعنون بشؤون الادب العربي والنهضة الحديثة هذه الدراسات ولا ندعي انها بلغت الغاية في هذا السبيل وانما نرجو ان تكون وسيلة يستطيع بها طلاب العلم والراغبون في البحث ان ينظروا في ادبنا الحديث نظراً منطقياً وان يتفهموا خوالج العرب في هذا القرن وبواعثها الحقيقية .

١٠٨ خ. م.

بيروت -

نوطية

في الثابت والمتجدد في الادب

في الادب عنصران مختلفان : عنصر الثبوت وعنصر التجدد . ونعني بالثبوت تلك الخاصة التي تضمن للادب خلوده من جيل الى جيل . خذ مثلاً روائع القدماء فاننا لا نزال نتناشدها الى الآن ونحن نشعر بروعتها وتأثيرها كما شعر الذين قبلنا وسيقرأها من بعدنا ويشعرون بها شعورنا وشعور الناس في كل زمان ومكان . وما ذلك إلا لان فيها جمالاً ثابتاً مع الاجيال هو سرّ خلودها وهو الذي يجذب اهل الثقافة عند كل الامم الى مطالعة روائعهم القديمة والتمتع بها .

وها نحن ابناء العربية في القرن العشرين على بعد عهدنا عن عهد امرئ القيس وزهير وعمر بن ابي ربيعة وابي نواس وابي تمام والمنتبي والبحتري والمعرّي ومن في طبقتهم من الشعراء ترانا نردد الكثير من اقوالهم ونحمل النشء الجديد على تدارسه وحفظه . ومن منا يستجيز لنفسه ان يقول ان تقادم العهد قد ذهب بهذه الروعة الحبية المتجسمة مثلاً في رائية عمر اذ نراه واقفاً عند المساء على شرفة وادٍ وهو يراقب من بعيد نحيم القبيلة التي تقيم فيها فتاته . ثم نسمعه يقول :

وبتّ اناجي النفس ابن خباؤها وكيف لما آتني من الامر مصدر
فدل عليها القلب رياء عرفتها لها وهوى النفس الذي كاد يظهر

في هذه الكلمات التي تصور لنا الحب هاديا حين لا هادي سواه والتي تحمل البناء من الجيب طيب رياه نغم يطربنا وجمال يحلو لنا كلما قرأناها او سمعناها . وذلك نفس ما يعترينا عندما نسمع العباس بن الاحنف يخاطب سرب القطا بلسان الواجد المشتاق :

بكيتُ على سرب القطا اذ مررن بي فقلتُ ومثلي بالبكاء جديرُ
أسرب القطا هل من يعير جناحه لعلني الى من قد هويت اطيرو

وهذا المتنبي يقرأ سفر الحياة وينقل لنا منه بقلمه الفتان ما يحرك النفوس ويهز
الوجدان . فلا غرابة ان تصبح اقواله على السنة الناس حتى اذا احتاجوا الى ما يشهد
همتهم ويوقظ عزائمهم قالوا :

ذريني انل ما لا ينال من العلى فصعب العلى في الصعب والسهل في السهل
تريدن لقيان المعالي رخصة ولا بد دون الشهد من إبر النحل
وقبله غاص ابوقمام على المعاني الفخمة وانشدها للناس في انغام رائعة . واي اديب
اليوم يقرأ ابياته التالية ولا تعثره هزة المغامر الذي لا يبالي في سبيل العلى بالاھوال
والمخاطر :

ولكنني لم احو وفرأ مجمعاً ففزت به الا بشمل مبدد
ولم تعطني الايام نوماً مسكناً الذب به الا بنوم مشرد
وطول مقام المرء في الحي مخلق لديباحتيه فاغترب تتجدد
فاني رايت الشمس زيدت محبة الى الناس ان ليست عليهم بسرمد

وما يصدق على هذه الامثلة القليلة يصدق على المئات من الروائع القديمة . ولن
يكون الادب ادباً عالياً ما لم تكن فيه هذه الروعة الخالدة التأثير مهما بعد مكانها او
زمانها اذ هي قائمة على اسس نفسية ثابتة يشترك فيها جميع الاحياء العاقلة .
على ان ثبوت الروعة الادبية لا ينفي ان يكون في الادب عنصر آخر هو عنصر
التغير او التجدد . ونعني به تلك النزعة الى التطور والسير في مسالك جديدة . فالادب
مرآة يعكس لنا الحياة والطبيعة وما يثيرانه في النفس البشرية من خوالج وافكار .
وبديهي ان الطبيعة الجامدة قلما يمسها هذا التطور المستمر . فالبحر والجبل والروض
والوادي والمطر والغابة والصحراء وسواها من المشاهد الطبيعية هي منذ اقدم
الازمنة الى الآن وقد عرفها الانسان القديم كما عرفها الحديث وانما يتفاوتان في التقرب
منها والنظر اليها والتلطف بمناجاتها وفهم آياتها .

اما الحياة الانسانية او البيئة العمرانية فسريرة التطور لا تستقر على شكل واحد
او نظام واحد . ومن البين ان اختبار الانسان في القرن العشرين غير اختباره في
القرون الغابرة وان الحياة في لندن ونيويورك وباريس غيرها في بادية نجد او غابات
السودان او نجود تبت . وعلى تقدم الانسان في الاختبار تقوم النهضة العمرانية

وبها يحصل هذا التطور المطرد في المجتمع البشري . وهذه النهضة تنعكس لنا في آداب كل الأمم على اختلاف أحوالها ودرجات ارتقائها .

فالآداب من هذه الناحية متطوّر متغيّر لانه يعكس لنا العوامل الفعالة في النهضة العمرانية السائرة في سبيل التطور العام . وعلى ذلك نرى في آداب العصور المختلفة ظواهر ينفرد بها عصر دون عصر كما ينفرد مثلاً العصر الجاهلي عن العصر العباسي او الاندلسي . ومن هنا منشأ هذا الاختلاف بين القديم والجديد .

ومهما كان الآداب وجدانياً او شخصياً فانه لا ينحصر في ذات صاحبه ويبقى هناك بمعزل عن كل الحركات الفكرية والاجتماعية التي تنشأ في بيئته وتمس حياته . وليس الأديب دودة الحرير التي تنسج حول نفسها قبرا ترقد فيه بل هو لوحة حساسة يرسم عليها ما يحيط به من مؤثرات فتمتزج بنفسه ثم تظهر للناس رسوماً ذات روعة وتأثير . والذي لا ينكر ان عصرنا الحاضر قد دخله من اسباب العمران ما باعد جداً ما بينه وبين العصور السالفة . اعتبر ذلك في شتى المبادئ السياسية التي طغت علينا من وراء البحر وتلك الانقلابات الاقتصادية والاجتماعية التي اقتضاها تقدم العلم والتوسع التجاري والاحتكاك بالأمم الغربية . كل ذلك قد أدّى الى تطور في البيئة العربية وبالتالي الى توجيه الآداب العربي نحو اهداف وفي اساليب لم تنهأ في البيئة القديمة او في الآداب القديمة . وسندرس ذلك تحت الابواب التالية .

١ - الاتجاه القومي - وهو يعبر عن وعي عام في البلدان العربية ويبحث في العوامل السياسية الخارجية والداخلية وما اثارت من شعور قومي وحركات وطنية

٢ - الاتجاه الاجتماعي - اي نحو الحياة العامة . ويتناول الشعب ومشاكله المختلفة واثار الحياة الجديدة فيه .

٣ - الاتجاه الطبيعي - وفيه نرى نزعة الآداب نحو الطبيعة والحياة الريفية .

٤ - الاتجاه الروحي - او ما يظهر في الآداب من تطوّر في النظر الى الحياة ومن ميل الى التأمل في المجرّدات .

٥ - الاتجاه الفني - وهو عرض عام لما في الآداب الحديث من ظواهر التجديد في الاسلوب والاخراج .

تمت

(١) الاتجاه القومي

تضارب النزعات اّبّان الحكم العثماني في عهد عبد الحميد الثاني
 الحوارج العامّة في العهد الدستوري
 النهضة العربية القوميّة واثرها في نفوس العرب
 المشادة بين الانتداب والقومية
 الاتجاه نحو الاتحاد العربي

(١) ذكرنا آنفاً ان هذا القسم من الكتاب قد نشرت فصوله في المقتطف ٩٣ و ٩٤ ثم جمعت في كتاب واحد تحت عنوان العوامل الفعالة في الادب ونحن هنا نعيده متمماً ومنقّحاً .

تضارب

النزعات الادابية

في عهد السلطان العثماني عبد الحميد الثاني

﴿ الرابطة العثمانية ﴾ ظلت تركيا الى عهد قريب سيدة الامم العربية من الناحية السياسية ، وظلت عاصمتها الاستانة مقرّ سلطنة متوامية الاطراف ، وخلافة دينية واسعة النفوذ .

وبرغم ما بلغته في اواخر عهدها من فساد اداري واختلال اقتصادي ، وبرغم الدعايات^(١) الواسعة التي كانت تقوم بها الدول الاوربية ، واخصّها روسيا القيصرية وبريطانيا وفرنسا والمانيا والنمسا ، لا ترى في الشرق العربي منذ ايام ابراهيم باشا المصري حتى اواخر القرن التاسع عشر حركة جدية للانفصال عن السلطنة العثمانية والاستقلال بكيان سياسي منظم . ولم يكن لقطر عربي من الاسباب الممهدة لظهور ادب قومي عربيّ النزعة ما كان لمصر في القرن التاسع عشر فهي اسبق البلدان العربية الى انشاء وحدة ادارية ذاتية ، بل هي اول مكان بعث فيه الروح العربية الاستقلالية ، كما يستدل من سياسة ابراهيم باشا التي كانت ترمي الى فصل بعض الاقطار العربية عن جسم السلطنة وتأسيس مملكة عربية كبيرة^(٢) . كان ابراهيم باشا يحلم بالاستقلال حينما صرّح للبارون بوالكونت بقوله^(٣) « ما انا بتوكي بل انا ابن مصر ان شمسها قد غيّرت دمي

(١) الدعايات لفظة غير قاموسية . ولكننا آثرنا استعمالها لشبوعها بين الكتاب السياسيين ولورودها في الحديث الشريف كقوله ادعوك بدعاية الاسلام

(٢) Rustum, The Royal Archives p. 92-96

(٣) Douin, Mission du Baron Boisle Comte p. 249

فجعلتني عربياً قحاً» وقد سارت مصر بعده بخطى ثابتة في ذلك السبيل ومع كل ذلك ظلّ الادب العربي فيها عثمانيّ الروح . والذي يراجع نشأت الادباء المصريين في القرن الاخير كابي النصر علي ، والشيخ علي الليثي ، وسامي باشا البارودي ، وعبدالله نديم وسواهم يتجلى له ما نقصد اليه .

وسبب ذلك ، على ما يظهر ، ما كان للخلافة ودعاتها من تأثير في نفوس المسلمين . فكان سلطان تركيا الممثل الاكبر لعظمة الشرق والاسلام . وإذا سمعنا الشيخ الليثي شاعر الحديوي اسماعيل يقول في السلطان عبدالعزيز (على الطريقة الشعرية في ذلك العهد)

دع ذكر كسرى وقصر إن اردت ثنا
عن قيصر الروم حيث النفع مفقود
واشرح مآثر من سارت بسيrote
ركائب الجود تحدها الصناديد
ملك الملوك الذي من يمن دولته
ظلّ العدالة في الآفاق ممدود

فالما قوله انموذج لما كان يقال في العرش العثماني وخلافة الاسلام . وقد ظلت الروح العثمانية شديدة البروز في مصر حتى حدث ما حدث بعد الحرب العالمية الاولى من سقوط الخلافة وانقلاب السلطنة العثمانية الى دولة تركية صرفة . وكان قادة الحركة الادبية على اتصال بمقر الخلافة . تغمرهم النعم السلطانية كعلي ابي النصر المتوفى سنة ١٨٨٠ وعبدالله فكري ١٨٨٩ وعبدالله نديم ١٨٩٦ وابراهيم المويلحي ١٩٠٦ ومصطفى كامل ١٩٠٨ ثم المتأخرون عن هؤلاء بالوفاة كاحمد شوقي وحافظ ابراهيم واسماعيل صبري واحمد نسيم ومصطفى الرافعي وسواهم .

وشوقي على ما يظهر هو اعظم من تغنى شعرياً بمحامد الخلافة وتعظيم رجالها . فان له في ذلك قصائد سائرة . ومن اشهرها ما نظمته في وقائع الحرب العثمانية اليونانية سنة ١٨٩٧ وكان في التاسعة والعشرين من عمره كقوله في بآيته العشاء (صدى الحرب) يخاطب السلطان :-

بسيّك يعلو الحقّ والحقّ اغلبُ
ويُنصر دين الله آيات تضربُ
وما السيف الا آية الملك في الوري
ولا الامر إلا للذي يتغلبُ

ومنها في وصف معركة ملونا وبأس الاتراك الظافرين :-

فهل من « ملونا » موقفٌ ومسامعُ
ومن جَبَلِها منبرٌ لي فاخطبُ
فاسأل حصنها العجيبين في الوري
ومدخلها الأعصى الذي هو أعجبُ

وأستشهدُ الاطوادَ شَمَاءَ والذَرَى
 بواذخ تلوي بالنجوم وتجذبُ
 هل البأسُ الا بأسهم وثبائهم
 ام العزمُ الا عزمهم والتلببُ
 أم الدين الا ما رأَت من جهادهم
 أم الملك الا ما عزّوا وهبوا
 والحق يقال ان هذه القصيدة هي فيض من العواطف العثمانية . وكذلك كان
 كثير من شعر شوقي . فقد نشأ على حب العثمانيين وظلَّ من اكبر الدعاة لهم . ومن
 أراد ان يتحقق عثمانية هذا الشاعر الكبير فليراجع من قصائده ما يلي : —
 تحية الترك ومطلعها :
 بحمد الله رب العالمينا
 وحمدك يا امير المؤمنين
 ضيف امير المؤمنين :
 رضي المسلمون والاسلام
 فرع عثمان دم فداك الدوام
 نجاة امير المؤمنين :
 هنيئاً امير المؤمنين فانا
 نجاتك للدين الحنيف نجاة
 الاسطول العثماني :
 هزّ اللواء بعزّك الاسلام
 وعنت لقائم سيفك الايام
 في سبيل الهلال الاحمر :
 يا قوم عثمان والدنيا مداولة
 تعاونوا بينكم يا قوم عثماناً
 في سبيل الهلال الاحمر :
 جبريل هلّ في السماء وكبر
 واكتب ثواب المحسنين وسطر
 الاندلس الجديدة :
 يا اخت اندلس عليك سلام
 هوت الخلافة عنك والاسلام
 تحية للترك :
 الدهر يقطان والايام لم تنم
 فما رقادكم يا اشرف الامم
 رثاء الخلافة :
 عادت اغاني العرس رجع نواح
 ونعت بين معالم الافراح
 فمن قراءة هذه القصائد وسواها^(١) يتبين لك ما كان للخلافة العثمانية من مقام في
 نفوس المصريين

(١) انظر في مثل ذلك ايضاً ديوان حافظ وديوان احمد نسيم في ديوان

(٢) ديوان حافظ وديوان احمد نسيم في ديوان

(٣) راجع في مثل ذلك ايضاً ديوان حافظ وديوان احمد نسيم في ديوان

اما في الادب المنشور فاكثرت ما ترى ذلك في خطب السيد عبد الله نديم ومقالاته ، ثم في الحركة الوطنية التي قام بها مصطفى كامل وفي كتابات السيد توفيق البكري . ومن امثله قول الاول في خطاب^(١) .

« هذي يدي في يد من اضعها ؟ وضعها في يد وطنك واعقد خنصرك على محبة امير المؤمنين الخليفة الاعظم والا فقطعها خير من وضعها في يد اجني يستميلك اليه بوعود كاذبة وحيل واهية لتكون عونك الاكبر على ضياع حقوقك واذلال اخوانك ونزع سلطة اميرك وسلطانك » وهذه الروح بارزة في كثير من اقوال هذا الخطيب . وكان مصطفى كامل (وهو زعيم الحركة الوطنية قبل الحرب الكبرى) يرى ان مصلحة مصر مرتبطة بمصلحة الاسلام على العموم . فكان كما قال زيدان « شديد المدافعة عنه » كثير السعي في نصرته . وقد كان يخدم مصلحة الدولة العثمانية من طرق كثيرة فانعم عليه السلطان بالرتب والالقب^(٢) . ومن قرأ خطبه تحقق صدق عثمانيته . ومن امثلة ذلك قوله من خطاب القاه على المصريين في باريس سنة ١٨٩٥^(٣) .

« حقاً ان سياسة التقرب من الدولة العلية لاحكم السياسات وأرشدنا . فضلاً عن الاسباب العظيمة الداعية لهذا التقرب فان العدو واحد . ولا يليق بنا ان نكون في فشل وشقاق في وقت يعمل فيه اعداؤنا على تجزئة دولتنا . ولا غرو ان كنا نتألم لآلام الدولة العلية فما نحن الا ابناؤها المستظلون بظلمها الوريث المجتمعون حول رايته » ... الى ان يقول « وقصارى القول ان الراية العثمانية هي الراية الوحيدة التي يجب ان نجمع حولها . ولا تتحقق وحدتنا بغير الاتحاد والاتلاف فلنتحد قلباً ولساناً ولنكن يداً واحدة في خدمة الاوطان واسعادها . ولنقل اليوم جميعاً من صميم افئدتنا ليحيى جلالة السلطان عبد الحميد وليحي العباس ولتحي العثمانية ومصر » .

واننا نترك التحقيق التاريخي البت في هل كان مصطفى كامل يستخدم الدعوة العثمانية مناوأة للاحتلال الانكليزي في مصر او كان يستخدم مناوأة الاحتلال اداة لخدمة الخلافة . على ان الذي لا شبهة فيه ان كلتا العثمانية والمصرية بارزتان في حياته وادبه ، وانه كان من اكبر الدعاة في مصر بل في الشرق لتوطيد دعائم الجامعة العثمانية .

(١) راجع مقالاته المنشورة على نفقة المطبعة الجديدة (مصر) ولاسيما الثالثة والتاسعة

(٢) تراجع مشاهير الشرق ١ - ٢٩٧ و ٢٩٩ (مصر ١٩٢٢)

(٣) راجعه في كتاب مصطفى كامل باشا (الطبعة الاولى مصر ١٩٠٨) ج ٣ - ١٩٧

في ظل الخلافة الاسلامية^(١).

وقد نشأ قبله اثنان كان لهما يد طولى في هذه الدعوة واحياهما في الادب العربي .
الاول احمد فارس الشدياق ١٨٨٧ وهو لبناني الاصل لكنه اتم علومه في مصر وعمل
فيها فتولى كتابة الوقائع المصرية . ثم جال في اوروبا وأقام فيها بضع عشرة سنة .
وبعد ذلك امّ تونس حيث اعتنق الاسلام ثم طلب الى الاستانة وهناك انشأ الجوائب
وكانت واسعة الانتشار في العالم الاسلامي وفيها يجد الباحث كثيراً من القصائد
والمقالات التي تدور على عظمة الدولة ومدح سلاطينها ورجالها . كقوله من قصيدة في
عبد العزيز^(٢).

للدولة العليا على وماثر يشدو بها يوم الفخار الآثر
ساست ممالك ليس يعلم حدّها ولغاتها الا العليم القادر
سرحيت شئت من البلاد فلا ترى الا النعيم وما اشتهاه الناظر

والثاني جمال الدين الافغاني ١٣١٤ هـ ويتصل نسبه بآل البيت . كان زعيماً اسلامياً
كبيراً . وقد اضطرته الاحوال السياسية ان يفارق بلاد الافغان ويقصد الاستانة
فاستقبل هناك بحفاوة واقام بها مدة . ثم امّ مصر وكان فيها محجة العلماء والمفكرين .
ولجمال الدين خطط وتعاليم سياسية ويؤخذ منها « ان الغرض الذي كان يصبّ نحوه
اعماله والمحور الذي كانت تدور عليه آماله توحيد كلمة الاسلام وجمع شتات المسلمين في
حوزة دولة اسلامية تحت ظل الخلافة العظمى »^(٣).

ونحن اذا قلنا ان الادب المصري كان متشعباً بروح التشيع للخلافة والجامعة
العثمانية فحكمنا يتناول المصريين الاصليين ولا سيما المسلمين منهم . اما نزلاء مصر من
السوريين واللبنانيين والعراقيين فكانوا فئتين متطرفتين ، فئة تجاري المصريين في
عقائبيتهم وفئة تنكر عليهم هذا الاندفاع نحو تركيا .

(١) راجع قول نجيب الحداد في منتخباته ٢١٦

(٢) منتخبات الجواب (١٢٩٢) ٣ - ١٥٢

(٣) تراجم مشاهير الشرق (زبدان) (مصر ١٩١٠) ج ٢ - ٦١ . وراجع ايضاً للاستشهاد

مجلته المروءة الوثقى وخصوصاً ص ٢٢٢

ومن الفئة الاولى سليم تقلا مؤسس جريدة الاهرام . واليك بعض ما كتبه سنة ١٨٩٩ في « الوطنية العثمانية » قال - (١) « ان في ممالكها المحروسة عناصر عديدة بين تركية وعربية وارمنية ويونانية وغيرها وكذلك مذاهب مختلفة . ولكنها تجمعها كلها جامعة واحدة وطنية هي الجامعة العثمانية وهي دون استثناء تخضع لجلالة سلطانها وتصدع بامرہ وتنصاع لاحكامه . وهذه الجامعة كانت وتكون الحصن الحصين للروية دون اطماع الدول ، وما وراء العتب بها الا الحسran والضياع . واذا تبين هذا ، وهو الحق الصراح ، كان ابن مصر وابن الحجاز والعراق والشام اخوة لام هي دولتهم ، وأب هو جلالة السلطان » وتجلّى هذه النزعة العثمانية ايضاً في شعر خليل مطران . وفي ادب مطران وسيrote ما يدل على مجاراته الوطنيين المصريين في آمالهم ونزعاتهم . فلا نستغرب ان نسمعه يقول في قصيدته « فتاة الجبل الاسود » وكان قد نظمها قبيل استقلال ذلك الجبل (٢) -

طفت امة الجبل الاسود على حكم فاتحها الأيّد
ومنها - وما الترك الافحول الحروب رضيعو لظاها من المولد
اذا القحوها الدماء فلا نتاج سوى الفخر والسؤدد
سواء على المجد اياً تكن عواقب مسعاهم تحمّد

وتظل هذه الحماسة العثمانية فيه الى زمن متأخر كما نرى في القصائد التي يذكر فيها حرب طرابلس الغرب وبعثات الهلال الاحمر (٣) ففي هذه وما يماثلها يظهر ميله العثماني وتشيعه لوطني مصر .

ويمثل الفئة الثانية المناوئة للسياسة العثمانية او الحميدية سليم سرڪيس صاحب جريدة المشير فهو شديد التهجم على هذه السياسة وعلى دعايتها . وما يبين لك ذلك مقالة له موضوعها « هل مصر عثمانية » قال فيها (٤) . « لم اجد في حياتي ولا قرأت في مطالعاتي عن امة تريد الانتقال من نور الاستقلال الى ظلمات العبودية الا هذا القسم من الامة المصرية الذين يريدون التمسك بأذيال العرش العثماني » ومن شعره قوله (٥) -

(١) مجالي الفرر ٧٣ ديوانه ص ١٥٤ (٢) راجعها في الشعراء الثلاثة للسندوبي (٣) راجعها في المشير عدد ١٠٣ (٤) راجعها في المشير عدد ١٨٣ (٥) المشير ٢١ ابريل ١٨٩٩

نرجو صلاح الترك قد خابت امانينا الكواذب
هي دولة ظلمت وليس العدل عن ظلم بذهاب
فانشدُ معي قولاً تردّده المشارق والمغارب
ليس العجبية فقدها بل عيشها احدى العجائب

ومثل سر كيس كثيرون ممن بلغ بهم اليأس هذا الحد من كره الادارة التركية على ان بين هاتين الفئتين فئة ثالثة تتوسطهما وتتصل بكليتهما . وهي فئة المعتدلين الذين لم يعمهم التغرض عن سيئات تركيا - ومنهم من هجرها طلباً لحرية الفكر - وكان مع ذلك كله يحرص على بقاء الجامعة العثمانية . نذكر منهم فرح انطون فقد اصدر في الاسكندرية سنة ١٨٩٧ مجلته (الجامعة العثمانية) . ومن اسمها يتضح مذهبه السياسي . وخلاصته^(١) ان الامم الشرقية يجب ان تتعالف تحالفاً متيناً جداً حتى تستطيع ان تسيطر مع التيار الغربي فلا يدوسها ولا يستطيع ان يبتعضها . فهو منذ بدء حياته القلمية يدعو الى جامعة شرقية واسعة . ومن اقواله في العدد الاول من مجلته مشيراً الى المدارس الاجنبية - « فلننشأ ايها العثمانيون بازاء تلك المدارس مدارس جديدة يكون اساس تعليمها حب الوطن والامة وتعليم ما هو الوطن وما هي الامة . لنؤسس مدارس جديدة ندخل اليها طرق التعليم الحديثة ووسائل التربية الحديثة . وندخل اليها قبل ذلك عناصر الامة كلها فرببها فيها على مقاعد واحدة ونلقنها دروساً واحدة ومبادئ واحدة حتى تكون بعد خروجهما من حياة المدرسة الى حياة الرجولية بقبوب واحدة وأفكار واحدة فان هذا هو السبيل الى تقوية جدار الوطنية العثمانية ووقايتها من التلثم والهدم »

وقد علق على ذلك الشيخ رشيد رضا صاحب المنار الاسلامي بقوله^(٢) « فشكراً لك ايها الكاتب الفاضل ، ونجح الله تعالى الجامعة العثمانية بمبادئك الصحيحة » وبما لا ريب فيه ان الشيخ المذكور كان من دعاة العثمانية^(٣) وكذلك الشيخ علي يوسف صاحب جريدة المؤيد وغيرهما من رجال العلم والدين .

ومن المعتدلين الناظرين الى الامور بعين الروية جرجي زيدان منشئ الهلال فهو من طلاب الاصلاح السياسي ولكنه لم يكن مناوئاً للعثمانية . والذي يطالع اعداد مجلته ولاسيما في السنين الاولى يراه عطوفاً على الدولة ولعله كان يرى كما كان يرى اديب

(١) « فرح انطون » ملحق مجلة السيدات والرجال ١٩٢٣ ص ١٤ (٢) المنار مج ٢ - ٤٧

(٣) راجع رأيه في محمد علي الكبير وخروجه على الدولة العثمانية المنار ١٠٩ - ١٠٨

اسحق واصحاب المقطّم وامثالهم ان الرابطة العثمانية لازمة للشرقيين وان طلب
الاصلاح لا يعني القضاء عليها او استبدال رابطة اخرى بها .

واذا صح ان نعدّ ولي الدين يكن نزيلاً في مصر لنشأته في الاستانة واعتباره اياها
وطنه الاصلي فهو من ابرز المنتمين الى هذه الفئة الوسطى . بل هو يجمع في نفسه
تطرف الفئتين الاوليين - شدة النقمة على السلطان عبد الحميد ، وشدة العصبية للوطن
التركي . فلما كان في مصر ورأى بعض الجرائد الانكليزية والعربية تتعامل على العنصر
التركي نسي نقمته على السلطان وحكومته وقام يدافع عن الاتراك غير مبالي بعبادة
كثير من خلانه الاحرار^(١) . وهو القائل « لوطني مني حياتي وكل ما كان دونها على
ان اعيش عثمانياً وأموت عثمانياً »^(٢) ومن اقواله في وطنه العثماني

ويخلد للآبائي فيك حيي واخلاصي الذي في الناس شاعا
وفي مرثاته لادهم باشا بطل الحرب اليونانية يقول

وبلاد الفتى تغزّ عليه وعظام الآباء فيها عظام
وعهود الصبا عهدٌ غوالٍ وغرام الوفيّ ذاك الغرام

وكيف التقت الى ولي الدين تجده في ادبه ذلك العثماني المحلص الذي يكره
الاستبداد ولكنه يحبّ الوطن ، يمدح اللورد كرومر لحماية الاحرار في مصر^(٣) ولكنه
ينقضّ على مشايعي غلاستون المتعاملين على تركيا والاتراك^(٤) . حتى في ايام محنته
ونفيه الى سيواس لا يذكر بلاده الا بالخير فيقول^(٥) .

ايها الركب سرّ فانّ امامي لبعاداً مرّاً وعيشاً امراً
غربةً هذه وقد كنت ادري أن سأرمي بها لدنّ كنت حراً
فالفجي يا رواسي الارض ناراً وأفيضي فدافد الارض بجراً
وانفجي يا ريح الشمال سموماً واقذفي يا سوائر الافق صخراً
انا ارضى بهذا حبّ بلادي وارى في سبيلها الموت فخرّاً

واذا ذكر الخلافة العثمانية ومجدها الماضي وكيف اصبحت في ايام عبد الحميد قرن
ذلك بدموع الاسى على الوطن فقال^(٦) -

(١) المعلوم والمجهول (١٩٠٩) ١ - ١٠٧ (٢) المعلوم والمجهول (١٩٠٩) ١ - ١٣٩
(٣) المعلوم والمجهول ١ - ١١٠ (٤) المعلوم والمجهول ١ - ١٠٧ (٥) المعلوم
والمجهول ٢ - ٦٥ (٦) ديوانه ٤٣

خلافة قد مضى عنها خلائقها من آل عثمان من سادوا ومن شادوا
 ابقوا بها المجد للخلاف بعدهم والمجد يبقيه للخلاف ايجاد
 حتى انتهت لامير في تسلطه يخشى مظالمه عاداً وشداداً
 يا ويلنا انما نبكي لنا وطناً يبكيه في التوب آباءً واجداداً
 وفي ديوانه باب خاص بالسياسيات تجد فيه شواهد كثيرة على نزعة الحرية ونقمة
 على سوء الادارة واستبداد العرش. واولى وطنياته قصيدة «نشاق حرية فيؤيسنا» (١)
 ومنها -

اياوطناً قد جرى الفساد به متى يرينا اصلاحك الزمن
 دفنت حياً وما دنا اجل ما ضرر لو دافنوك قد دفنوا
 دماء ابنائك الكرام جرت بحراً فاسلاؤهم لها سفن

ومثلها «الوطن يشكو اهله» (٢) «وزفرة من زفراقي» (٣)

قالها عندما نفى الى سيواس ١٩٠٢ وفيها يقول :

عداة الحق قد ربجوا واهل الحق قد خسروا
 ونحن اماننا وطن نراه اليوم يحتضر
 فيا افق التهب حزناً وجد بالدمع يا مطر

فولي الدين مهما يكن موقفه من الادارة الحميدية عثماني مخلص شديد التعلق بالجامعة
 العثمانية ولعله يفوق سائر الاصلاحيين في ذلك .

وما يصدق على المهاجرين العثمانيين في مصر يصدق عليهم في سائر المهاجر الا انه لما
 كان اكثرهم هناك من السوريين والبنانيين النازحين من بلادهم اما رهبة من الاستبداد
 وإما رغبة في طلب العلم ، ولما كانوا بعيدين عن تأثير الدعايات العثمانية خلافاً لحال
 اخوانهم في وادي النيل ، فقلما ترى منهم من يعطف على الجامعة العثمانية او يهتم ببقائها .
 على أنك قد تجد منهم من تهزه العصبية الشرقية أحياناً فتظهر العثمانية في شعره او نثره
 ولكن ذلك قليل اذا قيس بسواه .

(١) ديوانه وجريدة المشير ٨ يناير ١٨٩٨ (٢) ديوانه وجريدة القانون الاسامي ١٨٩٨

(٣) ديوانه

واذا خرجنا من مصر الى سائر الاقطار العربية ولاسيا سوريا ولبنان والعراق فمن الطبيعي أن نجد معظم الادب السياسي فيها متلبساً بملابس المجاملة او التزلف الى السلطان ورجال دولته .

ولا ينكر ان من الشعراء في هذه الاقطار من كان صادق العقيدة العثمانية إما لتأثيرها الديني في نفسه وإما لاسباب اخرى . على ان الرهبة من الاستبداد او الرغبة في جرّ المغام كانتا قبل العهد الدستوري من اهمّ الدواعي الى شيوع النزعة العثمانية في الادب العربي . وليس على طالب الحقيقة الا ان يراجع دواوين الشعراء في ذلك العهد كبطرس كرامه وعبد الباقي العمري ، وناصيف اليازجي ، وعبد الغفار الاخرس ، وفارس الشدياق ، ويوسف الاسير ، وابراهيم الاحدب . ثم محمد حسن الحموي ، ومحي الدين الحياط ، والباروني^(١)، وعبد الحميد الرافعي ، ومن عاصرهم . فانه يجد في جميعها ما يماثل قول اليازجي الكبير في السلطان عبد العزيز . -

خليفة الله ظلُّ في خليقته	ظلت به تتقى الدنيا وتستترُ
لا ترتضي غيره الدنيا لها ملكاً	لو كان جبريل يأتيها او الحضرُ
مقلد فوق اثواب مضاعفة	من خشية الله سيفاً صاغة القدر
إذا طلبنا من الباري لنا وطراً	فليس الا بقاءه عندنا وطر

أو قول عبد الحميد الرافعي من قصيدة في ابي الهدي الصيادي شيخ السلطان عبد الحميد^(٢)

سألوا يا سعدُ أين المبتغى	قلتُ حيث الشمسُ في برج الاسدُ
حيث لي من آل طه سادة	ملأوا الدنيا بأنوار الممددُ
ودنوا من ملجأ الملك لدى	مقعد الصدق ومرقى المعتمدُ
فرد ذا الدهر حميد الخلفا	دام في حفظٍ من الفرد الصمدُ

وباب مديح العظماء في ادب ذلك العهد واسع ، بل هو أوسع الابواب الشعرية . وكثير منه شخصي لا علاقة له خاصة بالاحوال السياسية . على ان منه ما يتعلق بالسياسة الداخلية او الخارجية . فدراسته من هذا القبيل مفيدة للباحث . ومن أمثلة ذلك قصيدة رفعت سنة ١٩٠٢ الى مظفر باشا متصرف لبنان عند توليه الحكم يحاول فيها الشاعر^(٣) ان يعبر عن أمني اللبنانيين المهاجرين فيصف حال الجبل في ذلك الحين

(١) شاعر جزائري اقام حيناً بمصر وله ديوان مطبوع

(٢) راجعها في ديوانه الافلاذ الزرجدية

(٣) قيصر المعلوف في تذكارات المهاجر (١٩٠٢) ص ١٠١

وأحوال المهاجرين ثم يلتفت الى المتصرف الجديد فيحذّره من تدخّل القناصل في ادارته . ويطلب الى نواب الاقضية (اعضاء مجلس الادارة) ان ينشطوا الى ما فيه خير البلاد وان يحموا سيئات الماضي في هذا العهد الجديد. ويختتمها راجياً من المتصرف ألا تكون وعوده كوعود اسلافه كلاماً في كلام فيقول -

امظفّر الجبل الذي ضمنت لنا اقواله ينناً يعزّ مثاله
كم حاكم ابدى لاول حكمه وعداً فكان وفاءه اخلاله
حاشاك اخلاف الوعود فانت من شرف المبادئ والوفاء خلاله
تركوا لنا التاريخ مسوداً فكُنْ ممن تخلد بالجميل فعاله

ولو رجعنا قليلاً الى الوراء وراجعنا مثلاً مدائح ناصيف اليازجي وخليل الخوري في فؤاد باشا لقرأنا في خلال سطورها كثيراً عن حوادث السنة الستين في سوريا ولبنان وقس على ذلك كثيراً من شعر المديح المتعلق بحوادث سياسية اثارت خواطر الناس في مختلف الاقطار العربية .

﴿ البوادر الثورية الاصلاحية ﴾ راينا فيما سبق ان « العثمانية » كانت قبل الدستور بارزة في الشعر المصري عموماً . وفي كثير من الشعر العراقي والسوري واللبناني . على ان الشعر العربي لم يكن كله كذلك . فقد كان في الشرق العربي كما اسلفنا احرار يهاجمون الفساد ويحملون على السياسة الغاشمة التي كانت تدفع البلاد الى هوة الانحطاط . وبرز ما نرى ذلك في عهد مدحت باشا ابي الاحرار العثمانيين . فانه لما تولى ولاية سورية ظهر في بيروت ودمشق حركة ادبية ترمي الى احياء الشعور القومي والتظلم من ضغط الاستانة . ولا ندري تماماً سرّ تلك الحركة اكان مبعثها كما يقول البعض مدحت باشا نفسه طمعاً يجعل سوريا كمصر والجلوس على اريكة الحكم فيها^(١) . ام لان وجود ذلك الحاكم النزوع الى الاصلاح انشأ في سوريا (كما انشأ من قبل في العراق) جواً ادبياً حراً استطاع به اباة الضيم ومرهفو الاحساس ان يبتثوا بعض خواجهم ويفرّجوا عن كربتهم . ذلك ما نتركه للتحقيق التاريخي .

واقضت السياسة نقل مدحت سنة ١٨٨٠ الى ازمير ثم محاكمته بتهمة قتل السلطان عبدالعزيز فتخلّص عبد الحميد منه ، وبوقت قصير استطاع ان يبطش برجال الحرية

والدستور وان يرجع بالبلاد الى عهد الاستبداد المطلق . فهو بعد ان بدأ حكمه ١٨٧٦ باعلان الدستور وبمجاراة والده عبدالمجيد في طلب الاصلاح نكص على عقبيه وعاد كما يقول روجي الخالدي « الى سياسة جدّه السلطان محمود خان في استعمال الجبر والاستبداد معتقداً ان الشعوب التي وضعها الله تحت يدي جلالته لا يمكن تسييرها الا بالقوة »^(١) فخدمت في ايامه الروح الاصلاحية داخل البلاد لكن بعض الاحرار من الترك والعرب حملوها الى الخارج وهناك تمت وتعرعت فكانت من العوامل الفعالة في انقلاب الحكومة الحميدية . وفي هؤلاء الاحرار المهاجرين يقول المشير^(٢) « هم اخواننا في الانسانية ، ورفاقنا في الحرية . علموا ان المجد لا ينال الا على جسرٍ من التعب . فهم يتعبون في السعي وراء خدمة بلادهم وارجاع مجد مملكتهم الذي انحط الى دركات التمول باهمال الامام الذي جار في احكامه والاعوان الذين صاروا بليّة على الامة »... الى ان يقول . . « وقد انضم اليهم بعض ادباء سوريا ومصر وهرب البعض منهم من عالم الجور والظلم الى فضاء الحرية والامن فانتشروا في باريز وسويسرا وانكلتروا وأميركا وأنشأوا الجرائد » الخ .

فظهر من هؤلاء المهاجرين طبقة من حاملي شعلة الادب وأكثرهم الآث في عالم الارواح منهم فتح الله مرآش - رزق الله حسون - عبدالرحمن الكواكي - خليل غانم - محمد قدرى - لويس صابونجي - امين مجيد ارسلان - حبيب سلموني - خليل سعادة - سليم سر كيس - نجيب الحداد - ولي الدين يكن . ولا يزال حياً من هذه الطبقة فارس نمر (الدكتور نمر باشا) .

ومن أراد الاطلاع على بنات افكارهم فليرجع الى مؤلفاتهم (واكثرها معروف) او الى صحفهم كالمشير والمقطم ولسان العرب ومرآة الاحوال والمجلة وتركيا الفتاة والنحلة والشورى وضياء الخافقين ورجع الصدى وكشف النقاب وسواها^(٣) وكلهم كما يصرح الدكتور يعقوب صرّوف قد اتحدوا على التنديد بالادارة السيئة الضاربة اطنابها في بلادهم^(٤) .

على انهم في ذلك متفاوتون . فمنهم المشدّد ومنهم المعتدل . ومنهم من بلغ به .

(١) الهلال ١٧ - ١٢٥ (٢) عدد ١١٣ (٣) في المعلوم والمجهول لولي الدين ص ٦٢

- ٧٢ وصف لبعض هذه الصحف وأصحابها فليراجع . (٤) المنتطف ٣٣ - ٨١٣

فرط التشاؤم حدّ اليأس بالاصلاح فصار لا يرى اصلاحاً الا بهدم كيان الدولة او وقوعها تحت مراقبة الاجانب. واقدم ما راينا من هذا القبيل قصيدة لرزق الله حسون نظمها في الحرب الروسية العثمانية واستيلاء الروس على القرص ومنها: (١)

كم حروب للروس دارت على التوك رحاها فغادرتها طحيناً
عَلِمَ الروس يحقق اليوم فوق القرص ولّى الاتراك في الغابرينا
هكذا هكذا تدور على الباغي الدوائر (٢) ويهلك المجرمون
ما عليهم لو عاملونا بحسنى وتساوٍ او انهم انصفونا

قال الدكتور فارس نمر باشا من خطبة له في النهضة الدستورية مشيراً الى فتح الله عرّاش ورزق الله حسون (٣) - « فهذان الحُرَّان الحليان اللذان فاقا الاقربان بحب الحرية كما فاقا الاقربان بمعانيهما السحرية ومبانيهما العسجدية قضيا رداً من الزمن يرسلان شعاع الحرية الى ابناء سوريا من قلب اعظم عاصمتين اشتهرتا في اوروىا بالحرية والنظامات الدستورية (اي لندن وباريس) ولكنها مزجا بلاغتهما بعلقم التفريق بين الترك والعرب فأصابا بايقاظ النفوس لطلب الحرية واخطأ بتمزيق الجامعة العثمانية » ويستدل من شعر حسون انه لجأ الى روسيا حيناً . ومدح قيصرها بقصيدة جعل القسم الاول منها وصفاً لفساد الاحوال في تركيا فقال : -

جُلت الشّامُ وغَسَّاناً وُعِجَت على فينيقيا وكيليكيّا كمعتمر
واذرعاتٍ وبلقاءٍ وتَدُمَرُ في صحراء خالية كالبحر من شجر
اذ لم اجد غير امصارٍ مقلّبة ورسم ابنيّة تبكي على الزّمر
وقفت انعي خراب الملك من مُدُنٍ في الحصر والوصف يعيي المرء بالحصر
وهو يعزو ذلك الخراب الى سوء ادارة السلطان ورجال دولته ثم يقول بعد ابيات
لهفي ولهف بني الاحرار كلهم على التساوي بانصاف مدى العُمر
ومنها : حتى دخلت بلاد الروس ملتجئاً بالمستجار محبّ الله والبشر
ومن هنا يتقدم الى وصف ما وجده في روسيا من عدل وامن ويقابله بسوء الحال

(١) راجع القصيدة في المشير عدد ٣١ (وفي بعض أبياتها اضطراب في الوزن)

(٢) هكذا رواية المشير ولو استبدلنا الدوائر بالدواهي او الليالي - لاستقام الوزن

(٣) المقتطف ٣٦ - ٢٥٨

في تركيا فتؤلمه المقابلة ويصبح من قلب متحسر^(١).

وإن تذكرت أوطاني بكيت دماً من مهبجة طفحت جرياً بمنهمر

ومثل حسون في النجمة على الادارة التركية وحب التخلص منها عدد من الادباء (وجلهم من مسيحي سوريا ولبنان) وقد سبقت الاشارة الى احدهم سليم سر كيس . وهو من الذين برزوا في هذا المضمار وله في ذلك كثير من القصائد والمقالات . منها قصيدة موضوعها « ثلاث حبّات » وضعها على لسان ارميني يموت جوعاً^(٢) وقصيدة نفيّر سوريا التي مطلعها^(٣).

يا اهل سوريا القساورُ من كل مفخورٍ وفاخرُ
افترضون صغارة لم يرضها في الناس صاغرُ

وله قصيدة اخرى مرّ ذكرها في كلامنا على موقف السوريين من الدعاية العثمانية في مصر وهي شديدة الوطأة وكذلك اكثر شعره ونثره . وبكفي ان نقول انه صاحب جريدة المشير التي اشتهرت بعدائها للدولة العثمانية ولاسيما لسياسة عبد الحميد . والذي يراجع الجرائد الحرة التي كانت في ذلك العهد تصدر خارج تركيا او في جوّ بعيد عن السيطرة التركية يجد ما لا يستطاع حصره هنا من نفثات الكتاب والشعراء الذين كانوا يحملون على عبد الحميد وبنائون سياسته . وقد كان لتلك النفثات تأثير ملموس في النفسية العربية بل هو الحميرة التي خمرتها وهياتها للنهضة القومية التي تلت ذلك العهد .

واذا كان السوريون واللبنانيون قد اضطروا قبل الدستور الى هجر تركيا ، ولم يستطيعوا الجهر برغائبهم الا خارجها . فمن الانصاف ان نذكر هنا ان الشعر الاصلاحي في العراق كان يسمع احياناً حتى في 'عقر البلاد . وبرز دعائه هناك اثنان - جميل الزهاوي ومعروف الرصافي . فلكليهما ما يستوقف النظر من الحملات العنيفة على سوء الادارة . ولقد يستغرب الانسان هذا العنف وصبر اولي الامر عليه دون عقاب ميم . ولكنه الواقع كما يتبين لمن يطالع قصائدهما القديمة وهما في عنفوان الشباب والقوة . فمن ذلك قصيدة للزهاوي قالها في الاستانة (حوالي سنة ١٨٩٧) وهي كما

(١) راجع القصيدة في ديوانه النفثات ص ٧٤ (٢) راجعها في المشير ٥ ابريل ١٨٩٦

(٣) المشير ١١ مايو ١٨٩٥

سترى من اشد ما هوجت به ادارة ذلك العهد وقد كان عقابه النفي من الاستانة الى وطنه بغداد . ومطلعها

ألا فانتبه للأمر حثام تغفل
اغث بلداً منها نشأت فقد عدت
ومنها - وما رابني الا غرارة فتية
تؤمل اصلاحاً وترجو سعادة
وما هي الا دولة همجية
فترفع بالاعزاز من كان جاهلاً
ومنها - لقد عبث بالشعب اطماع ظالم
فيا ويح قوم فوضوا امر أنفسهم
الى ملك عن فعله ليس يسأل
اما علمتك الحال ما كنت تجهل
عليها عواد للدمار تعجل
تؤمل اصلاحاً ولا تتأمل
الا باطل ما ترتجي وتؤمل
تسوس بما يقضي هواها وتعمل
وتخفص بالاذلال من كان يعقل
يحمله من جوره ما يحمل
الى ملك عن فعله ليس يسأل

وهي طويلة واكثرها على هذا النسق^(١) ومثلها قصيدته « الصارخة » وهي خمسة
يصف فيها حكومة عبد الحميد ونشرها يومئذ في المقتطف^(٢) ومن نقائده قوله من قصيدة
يخاطب السلطان^(٣).

ان الرعية اغنام يحثهم
يا عدل ان التفاتاً منك يسعدنا
ما جاءنا الشر الا من تهاوننا
لا بد من فك ما قد شد من عقد
ان الذين استحبوا قتل انفسهم
فرأ من الضيم ما كانوا مجانينا

وقوله يصف حال وطنه
ألا رعى الله اوطاناً لنا انتهكت
قد أضرم الجور ناراً في جوانبها
محبوبة السهل والوديان والكنب
واهلها بين نفاق ومحتطب

وعلى هذا المنوال ينسج في كثير من شعره السياسي القديم . وكجراته جرة
زميله الرصافي ولا سيما قبل ان يؤم الاستانة ويشغل منصباً علمياً فيها . ومن قصائده
الجريئة محمّس طويل موضوعه « ايقاظ الرقود » جاء فيه -

(١) راجع ديوانه (مصر ١٩٢٤) ٢٨٠ (٢) راجع ديوانه (مصر ١٩٢٤) ١٩٦

(٣) ديوانه اللباب (بغداد ١٩٢٨ ص ١٤)

حكومة شعبنا جارت وصارت علينا تستبدّ بما اشارت
فلا احداً دعت ولا استشارت وكلّ حكومة ظلمت وجارت

فبشرها بتمزيق الجلود

اقول وليس بعض القول جدّاً لسلطان تجبر واستبدّاً
تعدّي في الامور وما استعدّاً ألا يا ايها الملك المفدّي
ومن لولاه لم نك في الوجود

انم عن ان تسوس الملك طرفاً اقم ما تشتهي زمراً وعزفاً
اطل نكر الرعية خلّ عرفاً سُم البلدان مهما شئت خسفاً
وارسل من تشاء الى اللحد

وتتجلى لنا هذه الجراة ايضاً في قصيدته « رقية الصريع » التي مطلعها

يا عدل طال الانتظار فعجل يا عدل ضاق الصبر عنك فأقبل
ومنها : كيف القرار على امور حكومة حادت بهن عن الطريق الامثل

ومن هنا يأخذ بوصف فساد الادارة واستبداد الخليفة منادياً بسقوط الحكومة
الفردية ووجوب استبدالها بنظام جمهوري او دستوري. ثم يقول غير هيّاب
حَتّامَ نبقى لعبةً لحكومة دامت تجرّعنا نقيع الخنظل
تنحو بنا طرق البوار تحيِّفاً وتسومنا سوء العذاب الاهول
ما بالنّا منها نخاف القتل إنّ قنّا أما سنموت ان لم نقتل ؟

وفي ديوانه الاول المطبوع سنة ١٩١٠ كثير من هذه الحملات العنيفة نظم بعضها
في العهد الاستبدادي وبعضها في عهد الدستور . وقد صدق محي الدين الحياط اذ قال
فيه ^(١) « من هؤلاء الافذاذ الذين فطروا على عدم الاستخذاء للضم والتجافي عن
مضاجع الذلّ وعدم الاستئانة للحوادث . وقد كان يقرع قومه في اشد ايام الاستبداد
بمثل قوله : -

عجيب لقوم يخضعون لدولة يسوسهم في الموبقات عميدها
واعجب من ذا انهم يرهّبونها واموالها منهم ومنهم جنودها

وهذان البيتان من قصيدة موضوعها « تنبيه النيام » وهي خمسة وثلاثون بيتاً وكلها تتقد بمثل هذه النيران النفسية .

ومن الاحرار عبدالمحسن الكاظمي الذي اضطرّ الى هجر العراق وهو في العشرين من عمره هرباً من اضطهاد السلطات التركية^(١)

وقد كان في البلاد العربية العثمانية غير من ذكرنا من اصحاب الوجدان الحرّ والنزعة الثورية ولكنهم قلما كانوا يجروّون على الجهر بما تكتنه صدورهم لحرص قلم المراقبة ان لا ينشر في الصحف او الكتب الا ما يوافق مصلحة الحكومة ويشيد بذكر رجالها . فاجروا اقلامهم في غير الاصلاح السياسي وبلغوا في ذلك كما سنرى بعد شأواً يذكر

﴿ النعرة الشرقية في الادب الحديث ﴾ ظهر لنا في العواطف الشعرية العربية السابقة لعهد الدستور مجريان رئيسيّان - المجري العثماني (او الدعوة للعرش العثماني ورجاله) والمجري الاصلاحى (او المجل على ذلك العرش ودعائه) . وظهر لنا ايضاً ان للاخير فرعين فرع المتطرفين الداعين الى هدم الكيان العثماني . وفرع المعتدلين القائلين بوجوب الانقلاب مع المحافظة على الجامعة العثمانية . والذي يلوح لنا ان هؤلاء هم الاكثرية بين الاصلاحيين وقد كان هدفهم تجديد السلطنة ورفع مستواها لتكون وطناً حراً خليفاً بأن يحبّ ويفاخر به . فالشرق والغرب عندهم لا يجتمعان ولا ينبغي الشرقيين من برائن الاستعمار أو يحفظ كيانهم الشرقي الا العرش العثماني اذا قام على اسس الحضارة الجديدة ومن الطبيعي ان يكون المسلمون عموماً أعطف على الدولة العثمانية وفيها خلافتهم ومجدهم . يدلّك على ذلك ما اظروه في الحروب التي خاضتها قبل الدستور وبعده كحرب روسيا سنة ١٨٧٨ والحرب اليونانية ١٨٩٧ وحرب طرابلس ١٩١١ وحرب البلقان ١٩١٣ . بل وفي الحروب التي لم تخضها ولم يكن لها فيها مصلحة مباشرة كحرب روسيا واليابان (١٩٠٤ - ١٩٠٥)

ففي هذه الحرب كان العالم الاسلامي العربي بجانب اليابان لا لسبب الا لان اليابان دولة شرقية ثم هي تحارب روسيا عدوة تركيا التاريخية . وقد اثارت هذه الحرب من العواطف الشعرية في ادبنا ما لا يجوز لباحث الاغضاء عنه . فمن ذلك قصيدة مشهورة

لحافظ ابراهيم مطلعها : « لا تلم كفتي اذا السيف نبا » وفيها يقول مادحاً امبراطور اليابان (الميكادو) ووطنية شعبه

هكذا الميكادو قد علمنا ان نرى الاوطان امماً وأباً
ملكٌ يكفيك منه انه أنفض الشرق فهزّ المغرباً

وكذلك قوله من قصيدة موضوعها « الانقسام آفة الشعب »

فانفضوا النوم وجدّوا للعلمي فالعلمي وقف على من لم ينم
وانظروا اليابان في الشرق وقد ركزت اعلامها فوق الامم
حاربوا الجهل وكانوا قبلنا في دجى عيائه حتى انهزم
فاسألوا عنها الثرى لا الثرى انها تحتلّ ابراج الهمم

وقوله من قصيدة « أساحة الموت أم محشر » يشير الى ما نال الشرق من انتصار اليابان .

تسوينا الحرب وان أصبحت تدعو رجال الشرق أن يفخروا
أتى على الشرقي حين اذا ما ذكر الاحياء لا يذكر
حتى أعاد الصغر ايامه فانتصف الاسود والاسمر

ولعلّ قائلًا يقول ان شعر حافظ في الحرب الروسية اليابانية بل شعر مصر عموماً انما هو لما في نفوسهم من العطف على العثمانية لا لنصرة شرقية تستفزهم الى تحديّ الغربيين . فنقول ان اليابان كانت يومئذ حليفة بريطانيا . وفي الاسادة بمحامدها نوع من الدعاية لبريطانيا . ومع كل ذلك لم يتمتع حافظ وزملاؤه^(١) وهم من محاربي النفوذ البريطاني في مصر عن ان يستسلموا لعواطفهم الشرقية ويظهروا عطفهم على دولة شرقية برغم ما يربطها من الصداقة بمحتلي مصر

واذا القينا نظرة على غير مصر وجدنا ان الشعراء حتى الاحرار الناقمين على السلطة الحميدية يضرّبون على هذا الوتر الشرقي كما فعل الرصافي في قصيدته « معركة تسوشيما »^(٢) اذ قال :

سعروها في البحر حرباً ضروساً تأكل المال نارها والنفوسا

(١) كمصطفى الرافعي واحمد نسيم ومحمد عبد المطّلب وسوام

(٢) وهي معركة بحرية بين الاسطولين الروسي والياباني كانت نصرًا باهرًا لليابان

يوم طوغو^(١) دهى بأسطوله الروس قتلاً وكان يوماً عبوساً
فجداها بوارجاً تملأ البحر وقاراً طوراً وطوراً بوساً
فكسوهم من الهوان لبوساً وسقوهم من المنون كؤوساً
هكذا شيدوا بناء المعالي هكذا احسنوا لها التأسيساً

وللشاعر اللبناني امين ناصر الدين في الحرب الروسية اليابانية قصيدة^(٢) موضوعها «الياباني ومعشوقته» جعل سداها ولحمتها شجاعة اليابان وحميتهم الوطنية وظفرهم الباهر ومن ذلك ما وضعه على لسان المجاهد الياباني :-

هجمنا على ميناء «ارثور» هجمةً تردّ ابن عامٍ وهو بالخوف اشيبُ
ببيض يلوح النصر ايان جرّدت وسرّ لها بين القلوب تقلّبُ
وكنا اذا انهلّ الرصاص كأننا من الغيد بالتفاح نرمي فنطربُ
وعدنا وهاتيك القلاع بأسرها مهدّمةٌ قد حلّ منها المركّبُ
وقائعنا في البحر كانت عجيبةً ولكنها في لجة البحر اعجبُ

وهنا يصف معركة تسوشيما وانتصار طوغو ثم يقول :-

ورجعت الاقطار صوت انتصارنا ففي الشرق هزّاج وفي الغرب ندبُ

وقد اصاب الشاعر فان الشرق الادنى العربي او قل العثماني عرته هزة وطنية عامة على اثر انتصار اليابان وقد ردها الادب العربي عدة سنين بعد تلك الحرب . وكان كلما اراد انهاض الامم الشرقية ذكرها باليابان ونهضتها كقول كاتب هذه السطور سنة ١٩١١ من قصيدة موضوعها الحياة الجديدة في المشرقين^(٣)

معاذ الله ان نبقي نياما يحيط بنا الظلام ولا ظلاما
ارى النيران تضطرم اضطراما وآسياً تهبّ من الهجود

ونجم المجد في اليابان يسطعُ تحرّ لهم كواكبهم^(٤) وتضع
اضاء على الملا الشرقيّ اجمع وافهم جمعهم معنى الوجود

(١) اميرال الاسطول الياباني (٢) راجعها في صدى الخاطر (١٩١٣) ص ٣٤
(٣) راجعها في المورد الصافي م ٣ ص ١٧٣ (٤) الضمير في كواكبهم يرجع الى الغربيين

ولو اردنا تعداد القصائد والمقالات التي اثارها هذه الحرب او ذكرياتها لضاقت بنا الصفحات الكثيرة^(١). وليس غرضنا من الاشارة اليها وضرب الامثلة عليها الا اثبات حقيقة قد تضيع في مطاوي الايام، او تذهب بذهاب الذين عرفوها بالاختبار وهي ان النهضة اليابانية التي بلغت اوجها في حرب ١٩٠٤ - ١٩٠٥ قد حركت عواطف الوطنيين في مصر والشام والعراق فظهر ذلك في ادبهم المنظوم والمنثور، وكان من الاسباب المهمة لذلك الانتقاد الوطني الذي عقب اعلان الدستور العثماني فعزز الروح الشرقية في جميع الافطار العربية^(٢).

عوامل اقليمية * بقي علينا في هذا المقام ان نوجه النظر الى حوادث سياسية تركت في الادب صبغتها الخاصة. وهي كثيرة ومتفاوتة الاثر على ان اهمها اثنان وهما:
١ - حركة السنة الستين (١٨٦٠) في البلاد السورية وما عقبها من استقلال لبنان الداخلي^(٣). ولهذه الحركة في الادب العربي ظاهرتان كبيرتان - الاولى تأصيل الحزازات الدينية بين ابناء سوريا - تلك الحزازات التي كانت ولا تزال من اهم بواعث الشقاق في الشرق. والثانية انفصال لبنان عن السلطنة العثمانية بكيان سياسي خاص مضمون من الدول العظمى فصار اللبناني يشعر بكرامته الذاتية ويتذوق حلاوة الاستقلال وفي تينك الظاهرتين تكوّن في نفسه ذلك الشعور الاقليمي المناوئ لحركة الوحدة العربية كما سيجيء.

ومن يراجع دواوين الادباء اللبنانيين في هذه الخمسين السنة الاخيرة يرى شيوع ذلك الشعور برغم جميع الوسائل التي كانت تستخدم لضعافه. ولا ينكر ان بعض اللبنانيين قد اخذ بعد الحرب العالمية الاولى ينزع نزعة وطنية عامة، إما تحت اسم القومية السورية وإما تحت اسم الوحدة العربية، ولكن الشعور القديم الموروث عن آبائهم والمستمد من استقلال لبنان بعد السنة الستين لا يزال قوياً، وسيظل الادب اللبناني مصطبغاً به مدة طويلة من الزمن.

٢ - الاحتلال البريطاني لمصر سنة ١٨٨٢. وهو من الحوادث الاقليمية الكبرى

(١) من اهمها قصائد فارس الخوري في الحرب الروسية اليابانية وعنوانها «وقائع الحرب» وهي

مطبوعة بمصر - المار ١٠ - ٥٦ (٢) راجع ديوان مصطفى الرافي ١ - ٢٦ وديوان احمد نسيم

١ - ١٣ (٣) راجع هنا قصيدة الخوري حنا رعد العاصي في مدح فرنسا - الاداب العربية في

القرن التاسع عشر شيوخ ١٠٤

وبرغم تضارب الآراء فيه فاننا نرى ان اكثر الشعراء والخطباء في مصر كانوا ينظرون الى الاحتلال نظر العداة وينادون بالاستقلال والدستور. وقد ادَّى ذلك الى احياء الشعور الوطني فيها ثم الى تدرجها في مراتب الاستقلال حتى بلغت ما بلغته في هذا العهد.

ومن هذه العوامل الاقليمية - حوادث ارمينية ، وحوران ، واليمن وكثير من حوادث العراق المحلية . ولما كانت غايتنا هنا وصف الاتجاهات العاطفية العامة فاننا نقف عند هذا الحد من الكلام على الشعور قبل الدستور تاركين العوامل المحلية لمن يحب التخصص فيها .

الشعلة الدستورية

سنة ١٩٠٨

وانقضاء العهد الحميدي

ذكرنا آنفاً ان عبد الحميد قد بدأ حكمه باعلان الدستور والحكم النيابي ولكن ذلك الدستور لم يلبث ان خفق في المهد . وعادت الدولة الى نظام الحكم الفردي فكان ما عرفناه من تفاقم الضغط السياسي والاضطراب الاجتماعي طيلة العهد الحميدي^(١). ولعلّ الايات التالية لولي الدين يكن ترسم لنا بوضوح صورة ذلك العهد.
قال^(٢)

يبكي بنوك ويضحك الزمن ماذا أصابك أيها الوطن
ما أوشكت ان تنتهي محن الا وجاءت بعدها محن
اما الرسوم فانها درست اما الرجال فانهم دفنوا
العصر راجت سوق باطله فالحق فيه ما له ثمن
يا قوم هبوا من مضاجعكم طال المدى حثام ذا الوسن

وما رآه ولي الدين في تركيا نفسها رآه جميل الزهاوي في العراق فقال من قصيدة موضوعها « نحن في غفلة »^(٣)

نحن في غفلة نيام وعثا فاثبات الزمان غير نيام
نحن في دولة تداركها الله تبيح المحذور للحكام
وعدها بالاصلاح جم ولكن لا يجوز الاصلاح حد الكلام
نحن قوم قضت ارادة شخص واحد ان نعيش كالأنعام

(١) راجع وصف هذا الاضطراب في مقالات الانقلاب العثماني - الهلال م ١٧ ولاسيا ص ١٥٧
- ١٦٣ (٢) ديوانه (الطبعة الاولى) ٣٢ (٣) ديوان الزهاوي (مصر ١٩٢٤) ص ٢٩١

ومن الطبيعي ان يصحب الاضطراب الاداري اشتداد العوامل الهدامة من الخارج ومن الداخل. وقد صدق روجي الخالدي اذ قال^(١) « فبسبب تشويش الادارة وتذبذبها لم يعد للحكومة قاعدة مطردة ولا اصول مرعية لا في سياستها الداخلية ولا الخارجية ولذا سقط اعتبارها عند الدول الاجنبية حتى تجرأوا على تهديدها في المسائل الطفيفة العادية وسقط اعتبارها أيضاً في نظر رعاياها وصار أكثر الموجودين منهم في الديار الاجنبية يأنفون من دخولهم في التبعية العثمانية ». فلا عجب اذا رأينا ممتلكاتها البلقانية تنفصل عنها واحدة بعد واحدة فضلاً عن كريت وقبرص وسواها . وفي الشعر العربي اشارات كثيرة الى ذلك كقول الزهاوي^(٢)

رعى الله شعباً أهملته رعاته وملكاً كبيراً ركنه متزعزع
تقطّع منه كل يوم مدينة وما الكف الا أصبع ثم اصبع
وكقصيدة في جريدة المشير مطلعها^(٣)

ذهبت ويا للهول ارض كريد بمصابٍ هتكت ستار الغيد
وكلها طعن في عبد الحميد وسياسته التي ادّت - بزعم الشاعر - الى تجزئة المملكة
وزعزة اركانها . وكثيراً ما نرى هذه الاشارات الى ضعف السلطنة مقرونة بشعور
الأسى والجزع كقول ولي الدين في منفاه الى سيواس^(٤)

يقول احبتي صبراً وهل في النار يصطبر
ونحن اماننا وطن نراه اليوم يحتضر
فمن يجزع فمعذور ولكن قل من عذروا
فيا افق التهب حزنأ وُجد بالدمع يا مطر

ففي مطلع القرن العشرين نرى السلطنة العثمانية بين المطامع الاوربية والفساد الداخلي في موقف شديد الدقّة . وكما تمكن الاحرار في مثل هذا الموقف سنة ١٨٧٦ من اعلان الدستور عادوا بعد اثنتين وثلاثين سنة تحت لواء « الاتحاد والترقي » فاضطروا عبد الحميد الى اعلانه والشروع في انتخاب نواب الامة . وهكذا كان يوم ٢٤ تموز (يوليو) ١٩٠٨ يوماً عظيماً في تاريخ السلطنة العثمانية اذ تنادى زعماء الامة

(١) الهلال ١٧ - ١٦٢ (٢) الباب ١٣ (٣) المشير ٢٧ فبراير ١٨٩٧ لاسعد

حمادي (٤) ديوانه ٥٦ . وراجع ايضاً قول الشبيبي ديوانه ٢

بالحرية والمساواة والاخاء فتجاوبت اصواتهم في انحاء البلاد وكان لها دوي عظيم بين ابناء الشرق العربي .

﴿ الاستبشار العام بالعهد الجديد ﴾ وباعلان الدستور سرت في نفوس العثمانيين عموماً وابناء العربية خصوصاً نشوة حبور لم يُعهد لها مثيل فعدوا الحفلات الباهرة في الوطن وفي المهاجر . وانبرى خطباؤهم وشعراؤهم يشيدون بحسنات الانقلاب واعمال القائمين به ^(١) . ولا نبالغ اذا قلنا انه ما من حدث حرك الاقلام العربية كهذا الحدث العظيم فقولنا قول من شهد بعينه تلك الحال وعرف باختباره شعور الناس وشاركهم في غبطتهم العامة وآمالهم الواسعة . خذ سوريا ولبنان مثلاً وراجع صحفها لذلك العهد فتدرك عمق ذلك الانفجار الادبي فيها . ويكفي ان نلمح هنا الى قصائد عبدالله البستاني ، ومحبي الدين الحياط ، وشكيب ارسلان ، والياس فياض ، ونقولا فياض ، وفارس الخوري ، وامين ناصر الدين ، وعبدالرحمن سلام ، ومصطفى الغلاييني ، وشبلي ملاط ، وبشارة الخوري ، وسواهم من شعراء الوطن ، وسعيد شقير ، واسعد رستم ، والشاعر القروي ، وشبل دموس ، ونعوم مكرزل وامثالهم في مصر والمهاجر الغربية . هذا فضلاً عن عشرات الاناشيد الوطنية والازجال العامية التي لبست من البيان مسحة لم نعهدها في عهود الاستبداد .

وما يصدق على سوريا ولبنان يصدق على العراق ايضاً . وهناك الزهاوي ، والرصافي ، والدجيلي ، والعبادي ، والشبيبي ، والهنداوي ، والازري ، والعبيدي ممن شهدوا هذا الانقلاب وكان كلامهم معبراً عن عواطف الامة .

وقد رسم لنا الزهاوي يومئذ صورة لبغداد تُعد مثلاً صادقاً لجميع المدن العثمانية .

قال (٢)

وقفت والعين تبكي من مسرتها امام شعب من الافراح عجاج
امام بحر من الافكار مضطرب امام جيش من الاصوات رجراج
ان الشعوب اذا هاجت عواطفها كالبحر يضرب امواجاً بأمواج

ازاء هذه النعمة الدستورية نسي شاعرنا ما كان يثير اشجانه من مساوىء العهد

(١) قال المفتف (٣٣ - ٩٠٥) كان لاعلان الدستور أعظم وقع في نفوس العثمانيين فعدوا له حفلات باهرة في بلادهم وفي كل البلدان التي هاجروا اليها نلي فيها من الخطب والقصائد ما لو جمع للملا مجلدات كثيرة (٢) ديوانه (١٩٢٤) ٢٧٤

الماضي - عهد الظلم والجهل والفوضى - كما كان ينبغته قبلاً ، فقال والامل يملأ فؤاده (١)

البوق اهدى لنا بشرى بها هدأت
ارواحنا بعد طول الخوف والرهب
بشرى كما تبتغي الآمال صادقة
اجلّها الناس من قاصٍ ومقترب
لقد اقرّ لعمرى اعيناً سخنت
ما ناله فئة الاحرار من ارب

وقال آخر يصف شعوره وشعور الناس في احدى حفلات الدستور في بيروت (٢)

« هذه اول مرة شعرت فيها بالوطنية التي يشعر بها كل من قدر الوطنية قدرها .
يتزاور الناس من جميع الطبقات وهم فرحون ومشرحو الصدور فالיום شعر
السوريون بطيب الحرية وادركوا سوء مغبّة الاستبداد والضغط وعرفوا ان التعصب
الذي يفرق الكلمة يفرّق القلوب . اليوم دروا ان اوربا لم تستفحل صولتها الا بالاتحاد ،
ولا اتحاد مع التعصّب »

وليس في هذا الكلام شيء كبير ولكنه شعور الناس يومئذ . وقد كان ذلك
الشعور يتدفق شعراً ونثراً على السنة كبار الادباء وعلى السنة صغارهم وكان للشعر
العامي نصيب وافر منه ولا سيما في لبنان ومهاجرة ومن امثلته قول احدهم ارتجالاً (٣)

يا اسلام ومسيحية اسمعوا لي ها القضية
اهل الارض بطول وعرض يقولوا تحيا الحرية

اهل الارض بطول وعرض يقولوا تحيا الحرية
فليحيا نيازي وانور والجيوش الشاهانية

اهل الارض بكاملها من اولها لآخرها
تركيا الله يعمرها بجاه رب البريه

بطل روح الاستبداد نادوها بكل البلاد
زمان الماضي ما بينعاد الظلم نجومه تخفيه

وقد اشترك في هذا التهليل اشهر قوالي ذلك الحين كخليل الفغالي الشحروزي

(١) ديوانه (١٩٣٢) ٢٧٥ (٢) جريدة لسان الحال ١ آب ١٩٠٨

(٣) الاداب في القرن التاسع عشر (شيخو) ٢ - ١٦٢

والياس الفران وسواهما . وللاول خمس دعاه صوت الحرية ومطلعه .

صوت البري من قاع بوسفور العميق لما وصل لله من اقوم طريق
المجد ظلل حزب تركيا الفتاة وانتصر عهد الجديد على العتيق

المجد ظلل حزب تركيا الفتاة والروح لبستها بعد ذاك المات
والرب اوهبها علا ونصر وحياة من بعد ما كانت حزينة بائسه
والمظالم راح بتخنفها خنيق

وقد ذكره الاب شيخو في منتخباته الدستورية . وكذلك ذكر « قرادية » للفران
مطلعها .

كنت بأكبر بليه بسجن العبوديه

وبعض اقوال المهاجرين فلتراجع^(١)

ولم تقصّر مصر في مشاركة سائر الاقطار العثمانية بهذا الابتهاج العام . على انه لا
مناص للتأطر المتعمق في الحوارج الشعرية يومئذ من ان يلح هنا كما ملح من قبل شيئاً
من التفاوت بين النزعة المصرية الصميّة وغير الصميّة . فيينا ترى الاخيرة تقرت
الغبطة الدستورية بذكريات العهد البائد ومآثر رجال الاتحاد، وتحوم دائماً حول ما كان
يقاسيه الناس من ظلم واضطهاد . ترى الاولى هزجة بالعرش العثماني داعية الى توثيق
عري الاخلاص له وقلماً ترى فيها ما يشير الى اضطرابه او فسادده، وحال الرعية في ابان
استبداده . وهذه قصيدة شوقي في الدستور العثماني^(٢) ومطلعها .

بشرى البرية قاصيها ودانيها حاط الخلافة بالدستور حاميا

فهي فيض من الجبور ، وبشرى وضاعة بمستقبل زاهر ستقر له عيون العثمانيين
ولكنها عند التحقيق قلادة يضعها في عنق السلطان - اثنان وخمسون بيتاً اكثرها يدور
على السلطان وعمله العظيم في اعلان الدستور من مثل قوله -

اسدى الينا امير المؤمنين يدا جلّت كما جل في الاملاك مسديا

وليس مستعظماً فضل ولا اكرم من صاحب السكة الكبرى^(٣) ومنشيها

(١) الآداب في القرن التاسع عشر (شيخو) ٢ - ١٦٠ - ١٦٢ (٢) الشوقيات ١

(٣) اشارة الى السكة الحديدية الحجازية

إن الندى والرضى فيه واسرته والله للخير هاديه وهاديا
خلافة الله في احضان دولتهم شاب الزمان وما شابت نواصيا
بل هو يعزو الى عبد الحميد قبول الدستور راضياً مرضياً وأنه لو أراد لرفضه
وأحدث حرباً أهلية عظيمة —

حققت عند مناداة الجيوش بها دم البرية ارضاءً لباريا
وهكذا يجري في مدحه وتبيان فضله ولا يشير الا ببيت واحد فيها الى رجال
الدستور. وفي نهايتها ينهى العثمانيين ويشير الى حال مصر والى آماني المصريين فيقول—
يا شعب عثمان من ترك ومن عرب حياك من يبعث الموتى ويحييها
صبرت للحق حين النفس جازعة والله بالصبر عند الحق موصيها
ما بين آمالك اللائي ظفرت بها وبين مصر معان أنت تدريها
ومثل شوقي حافظ ابراهيم في قصيدته «تحية الاخلاص»^(١) للامة العثمانية الدستورية
ففيها يمدح السلطان عبد الحميد لاعلانه الدستور ومدّه سكة الحجاز . ويستهلها بقوله—

اننى الحبيب عليك والحرمان وأجلّ عيد جلوسك الثقلان
أرضيت ربك إذ جعلت طريقه أمناً وفزت بنعمة الرضوان
وجمعت بالدستور حولك أمة شتى المذاهب جمّة الاضغان
ومنها مشيراً الى سرور الناس بالحرية —

ثلجت صدورهم وقرّ قرارهم لما حلفت باوثق الأيمان
يا يوم عاد النازحون لارضهم يتسابقون لرؤية الاوطان
لله كم اطفأت من نار ذكت دهرأً وكم هدأت من اشجان
هذا يطير الى «فروق» ومن بها شوقاً وذاك الى ربي لبنان
خلعوا الشباب على البشير وأخلقوا بالثم عهد خليفة الرحمن
وينحي باللائمة على شريف مكة ويحمل عليه وعلى أعوانه حملة شعواء . وفي
القصيدة وصف للحرية معشوقة الجميع وذكر خاص لشهر تموز (يوليو) شهر الدستور
وتنمّ أن يكون لمصر نصيب منه —

تمّوز أنت أبو الشهور جلالةً تمّوز أنت منى الاسير العاني
هلاً جعلت لنا نصيباً علّنا نجري مع الاحياء في ميدان
ايعود منك الآملون بما رجوا ونعود نحن بذلك الحرمان

وهي تدعو الى الوثام والاتحاد في ظل الهلال

وعلى غرار شوقي وحافظ أكثر نفثات المصريين الدستورية^(١). ومثلها ما نراه في
الادب الجزائري والتونسي. ويقابلها من الجهة الاخرى نفثات الذين ذاقوا مرارة العهد
الحميدي: ففيها كما أسلفنا يفتن الجبور بذكر الماضي، كما ترى في شعر ولي الدين يكن
ومنه 'قصيدة في افتتاح البرلمان العثماني يقول فيها'^(٢)

بالامس كنا معشراً تبكي حالتنا المعاشر
تقتادنا الابدبي الاثيمة للسجون وللمقابر
ويصول انصار المليك على الاكابر والاصاغر

ومنها مشيراً الى المجلس النيابي :-

لله قصرٌ شامخٌ مدّ النواظر عنه قاصرٌ
قصرٌ به يعلو التسا وي راس مأمورٍ وآمرٌ

وتجيش عاطفة الشكر في نفسه فيقول

يادهر شكرك واجبٌ يادهر ما في الناس كافرٌ
لم يبق ظلمٌ يتقى دارت على الظلم الدوائر

هذا الميل الى مقابلة العهد الحاضر بالعهد البائد - الى ذكر المساويء التي كانت
ترزعج الناس وتؤلمهم تعظيماً لحسنات الدستور وبشأ لما كانت تكظمه الصدور تراه
شائعاً في المنظومات الدستورية خارج الحلقات المصرية . وقد ذهب الشعراء في ذلك
كل مذهب وهاموا في كل واد . ولا بدع فهم يعبرون عن شعور امة كانت ترسف
بقيود الذل فجاءها فجأة من حطّم تلك القيود ، واطلقها حرة تنعم بسعادة الوجود .
ولو اردنا ضرب الامثلة على هذه الظاهرة الروحية لمألنا صفحات عديدة من قصائد

(١) راجع خطبة الشيخ علي يوسف (المطبعة الادبية بيروت ١٩٠٨)

(٢) ديوانه (١٩٣٤) ٩٦

الشعراء وخطب الخطباء ولكننا نكتفي هنا بأغودج منها . وهو ابيات من قصيدة لسعيد باشا شقير قال فيها يخاطب الجند الذين تمّ على ايديهم اعلان الدستور

اليوم نمرحُ احراراً بفضلكمُ نغدو ونسي ولا هم ولا نصَبُ
قد اطلق الحرّ من سجن اهين به وعاد للوطن المحبوب مغتربُ
فلا جواسيس تخشى من وشايتهم ولا جرائد تأتيننا فتوتعبُ
ننام في الليل لا الاحلام تقلقنا وننهض الصبح لا خوف ولا رعبُ
كم بين حال اتتنا كلها طربُ وبين حال عدتنا كلها رهَبُ

ومثلها قول نقولا رزق الله من قصيدة مطلعها^(١)

يا ايها الناس حيّوا ذلك العلم وسبّحوا مانح الحرية الأما

وفيها يطلب من الناس مناصرة عصبة الاحرار الذين احبوا البلاد ، وحرّروا العباد والدعاء لهم بالبقاء حتى تدوم للوطن هذه الآلاء . ثم يلتفت الى العهد الماضي فيقول

سواكم العدل اخواناً سواسيةً فليس يُظلم فيكم غير من ظلما
وليس يقصى اديبٌ عن موطنه ولا يضام عليم قال ما علما
ولا يكافأ ذو مالٍ لثروته ولا يجازي فقير فقره اثما
ولا يقوم على الذلّ العزيزُ كمن قد شقّه الداء حتى عاشر السقما
لا يعبثنّ بحقٍّ من حقوقكم ذو سلطةٍ جائرٌ مهما علا وسما

ومثل هذه الروح تظهر في الحفلات التي اقيمت لعيد الحرية سنة ١٩٠٩^(٢)

وسواء اكان الشعر العربي ممالئاً للعرش العثماني ام غير بماليء فان الدستور القى عليه عموماً مسحة ظاهرة من الزهو والاستبشار اذ فتح للناس ابواب الرجاء فأصبحوا ينظرون الى المستقبل نظر الوثوق والتفاؤل . وكان الدستور عندهم شعار السعادة الفردية والقومية ومفتاح الرقي الاقتصادي والاجتماعي . شعور لذيذ هزّ القلوب حيناً ولكنه لم يطل

(١) الهلال ١٧ - ١٧٢

(٢) راجع من ذلك « عيد الحرية » لامين ناصر الدين في صدى المخاطر ٩٢

﴿ خلع عبد الحميد ﴾ والذي يلاحظ من دراسة الشعر ان هذا الجبور العام الذي عقب اعلان الدستور كان في اول الامر مقروناً بالثناء على عبد الحميد . ذلك لان الذين احدثوا الانقلاب لم يمسوا بادىء ذي بدء عرشه فظلّ حيناً يتمتّع بنفوذٍ عظيم . على انه لما حدثت الفتنة الرجعية سنة ١٩٠٩ رأى الدستوريون ان في بقاء ذلك السلطان خطراً على نظامهم فخلعوه في ٢٧ نيسان من تلك السنة واجلسوا على العرش اخاه محمد رشاد . وبخلعه سرت هزة شعرية لا تقلّ عن هزة الدستور : فتفجرت القلوب بما كانت تكنّه لشخصه ولعهده ، واخذ الشعراء في سوريا والعراق والمهاجر يتبارون في تعداد مساوئه . ومن امثلة ذلك قصيدة لفارس بك الحوري ^(١) مطلعها

الله اكبر فالظلام قد علموا لا يّ منقلب يفضي الاولى ظلموا
لقد هوى اليوم صرح الظلم وانتقضت اركانهُ وتولّت اهلُهُ النِّقَمُ
ومنها يخاطب عبد الحميد ساخراً به ذا كراً مجد اسلافه

شادوا لك العزّة القعساء من قدمٍ فجئت تهدم ما شادوا وما رسموا
كانت لهم دولة بالسيف ناهضة وفي زمانك لا سيف ولا قلم
حصدت ما زرعوا فرقت ما جمعوا هدمت ما رفعوا بعثت ما نظموا
وهي طويلة وكلها من هذا النّفس البليغ . وأشد منها تشفيّاً قول احد شعراء المهجر من قصيدة نشرتها جريدة مرآة الغرب ^(٢)

مضى عبد الحميد الى مكان رمت فيه أم قشعم الرجال
مضى وله بفعل الشر ذكر محاذير الى كانوا مثالا
ملك قد تسربل بالتحازي وعمّ الارض غدراً واحتيالا
امير المؤمنين دعوه زوراً فكان الذئب لم يعرف حلالا
عدو الدين والاسلام هلاً علمت بان في الدنيا زوالا

ولمعروف الرصافي في ديوانه قصيدة معروفة يصف فيها زحف الجيش من سلانيك على الاستانة وخلعهم عبد الحميد تأييداً للحرية وحفظاً للدستور . ومطلعها -
لقد سمعوا من الوطن الانينا فضجّوا بالبكاء له حيننا

(١) راجع القصيدة في المقتضب ٦-١٣٧ (٢) الآداب العربية في القرن التاسع عشر (شبخو) ١٨٥

وناداهم لنصرتِه فقاموا جميعاً للدفاع مُسلّحين
ومنها مشيراً الى زحف الجيش وارغامهم أنوف الرجعيين -

أتينا دار قسطنطين صباحاً وقد فتحت لهم فتحاً مبيناً
وظلّ الجيش جيش الله يشفي بحدّ سيوفه الداء الدفين
فأرهبنا أنفس الطاغين حتى سقاهم من عدالته المنونا
وحطوا قصر يلدز عن سماء له فأنحطّ أسفل سافلين
هو عبد الحميد به هويّاً الى درك الملوك الظالمين
وفي ختامها - واسقط ذلك الجبار قهراً وأنباه بصارمه اليقين
فقرّت عين الدستور أمناً وشأته أوجه المتمرّدين

وله في ذلك قصيدة اخرى اسمها « وقفة عند يلدز » وهي لا تقلّ عن اختها مضاءً .
وفيها يخاطب الشاعر قصر يلدز بعد ان سقط صاحبه (عبد الحميد) وارسل سجيناً الى
سلانيك ، فيذكر ما كان له من مساوىء ومظالم ويحتم القصيدة بنفثة فخرية حماسية
فيقول -

إنّا نحن امةٌ تدرأ الضيم ولا تستكين لوال
امّة سادت الانام وطابت عنصراً من اواخر واول
فاذا ما علا الغشوم نهضنا فقدفناه سافلاً من عال
نحن من شعلة الجحيم خلقنا لأولي الجور لا من الصلصال

وهنا نعمله الحماسة الى اقصى مدى فيهدد طغاة الانام جميعاً منذراً إياهم بسوء المصير
فيقول -

يا ملوك الانام هلاًّ اعتبرتم بملوك تجور في الافعال
فاتركوا الناس مطلقين والا عشم موثقين بالاولوال

وعلى هذا الغرار كثير من ادب ذلك العهد^(١)

تلك كانت عواطف الشعر العربي في العراق والاقطار السورية والمهاجر . اما في

(١) راجع الكاظمي في كتاب آداب مصر لسمعد ١٨٣ والقروي في ديوانه الرشيدات ٩١
ووديع عقل في ديوانه ٨٥ . وبشاره الخوري - في الآداب العربية لشيخو باب الحماسة الدستورية

مصر او في الاوساط المصرية الاصيلة فمن الطبيعي ان لا نتوقع هذا الاندفاع في الحمل على عبد الحميد والتهليل لسقوطه . فالمصريون او بكلمة اصح فالشعر المصري قد قابل خلعه برعشة مقرونة بالعطف والشفقة . وذلك على ما يظهر لسبين رئيسين . (١) لما ذكرناه سالفاً من ان المصريين الحديثين لم يذوقوا من الادارة الحميدية ما ذاقه اخوانهم في الاقطار الاخرى . (٢) لانهم كانوا ازاء احتلال اجني قد اثار حفاظهم الدينية والجنسية فليس من الوفاء الوطني وقد جاهروا مراراً بمودتهم للعثمانية ان ينقلبوا على الخليفة الآن ويحطوا من شأنه امام الاجانب وقد كانوا الى الامس يعظمونه ويدعون له . فليس غريباً اذن ان تظل علاقتهم بعرش الخلافة حية فعالة ، وان يكونوا اعطف على الهاوي عنه واقرب الى الصفح عن سيئاته . وعلى ذلك نرى شوقي يقول في قصيدته « سل يلدزا ذات القصور »^(١)

خطبُ الإمام على المنظم يعزّ شراً والنير
شيخ الملوك وان تضع في الفؤاد وفي الضير
نستغفر الله له والله يعفو عن كثير
ونراه عند مصابه اولى بباك او عذير

وانظر الى روح العطف كيف يظهر في قوله مخاطباً عبد الحميد

عبد الحميد حساب مثلك في يد الملك الغفور
ماذا دهاك من الامور وانت داهية الامور
دخلوا السرير عليك يحتمون في رب السرير
اعظم بهم من آسرين وبالخليفة من اسير

وكما كان طبيعياً ان يتلبس شعر شوقي بثوب الوفاء للسلطان والعطف عليه كان طبيعياً ايضاً ان نرى شاعراً كولي الدين ذاق ما ذاق من احوال الاستبداد يعارض قصيدة شوقي فينظم قصيدة^(٢) على وزنها ورويها مندداً بعبد الحميد معدداً سيئات حكمه كقوله : -

ان الثلاثين التي مرت بنا مرّ العصور
وهبتك تجربة الامور فعشت في جهل الامور

من كان يدعوك الحبيبَ فلست عندي بالحبيب
ويقول مشيراً الى شوقي وطبقته متألماً من عطفهم ومسيئاً الظن بعواطفهم

لما اديل عن السرير بكاه عبّاد السرير
أسفوا عليه وانما أسفوا على المال الدير
طلبوا له عفو الغفور وشدّ عن عفو الغفور

وما نراه في شعر شوقي نراه في شعر حافظ واسماعيل صبري واحمد نسيم وسواهم
ويشارك مصر في هذا العطف سائر الاقطار الافريقية^(١) ونود ان نشير هنا اشارة خاصة
الى قصيدتين لحافظ^(٢) فالاولى مطلعها

لا رعى الله عهدا من جدود
ومنها - شمت المسلمون قبل النصارى
كيف امسيت يا ابن عبد المجيد
فيك قبل الدروز قبل اليهود
يشمت الورى في طريد
انت عبد الحميد والتاج معقود
وعبد الحميد رهن القيود
خالد انت رغم انف الليالي
في كبار الرجال اهل الخلود

وهذه القصيدة ، برغم ما يتخللها من ذكر بعض المساوئ الحميدة ، مرتبطة بشعور
واحد هو شعور العطف والوفاء لخليفة

ولي الامر ثلث قرن ينادي باسمه كل مسلم في الوجود
على ان هذا العطف اخذ يخف في شعر حافظ وها نحن نراه في العيد الدستوري
الاول ينشد قصيدته التي مطلعها «اجل هذه اعلامه ومواكبه» فيذكر محامد الدستور
وما آتي محمود شوكت ونيازي وانور . ويقف على يلدز واصفاً ما اصابه ، معدداً اوهام
صاحبه واخطاءه ثم يقول

سأله أأغنت عنه في يوم خلعه
واخرجه من يلدز رب يلدز
عجائبه او احزته رغائبه
وجرّده من سيف عثمان واهبه
يغالب ذكرى ملكه وتغالبه
يناديه صوت الحقّ ذق ما اذقتهم
فكل امرئ رهن بما هو كاسبه

مضى عهد الاستبداد واندكَّ صرحه وولتْ افاعيه وماتت عقارب

واذا تابعننا حافظاً في قصيدته هذه التي نظمها بعد خلع عبد الحميد بنحو ثلاثة اشهر
وجدنا ان تحول عطفه عن ذلك السلطان لم يخف من ولائه للعرش العثماني والخلافة
الاسلامية فهذا العيد يستخفه مدح السلطان الجديد محمد رشاد وتعظيم عرشه فيقول -

لتهنى امير المؤمنين محمداً خلافته فالعرش سعد كواكبه
ستملك امواج البحار سفينه كما ملكت شم الجبال كتابه
بماله محروسة وثغوره ركائبه منصوره ومراكبه

الدستور

والروح الوطنية

مما ذكرناه آنفاً يتضح ان ما تدفق به الشعر الدستوري من عواطف الجور والتهيل راجع بالاكثر الى ما نشأ في نفوس العثمانيين عموماً والعرب خصوصاً من ايمان ثابت باخلاص الدستوريين ورجاء حيٍّ بحسن المصير . فكنت تراهم على شبه يقين من انهم اصبحوا ابناً لدولة عظيمة تحبهم وترغب في تقدمهم ذلك الايمان وذلك الرجاء بعثا في الشرق العربي روحاً جديدة ايقظت القلوب واضرمت فيها الشعور بالفخر والكرامة الذاتية فألبست الادب حللاً قشبية من الجمال . وقد ظهر ذلك في مظهرين رئيسيين هما الاعتزاز بالوطنية، والدعوة الى الاتحاد القومي . واليك البيان بما اختبرناه بأنفسنا وعرفناه من اختبار الآخرين

﴿ الاعتزاز بالوطنية ﴾ اشرنا في فصل سابق الى ما كان للحرب الروسية اليابانية ١٩٠٥ من اثر في تخمير الشرق العربي بروح الكرامة الشرقية . وقلنا ان ذلك لم يكن الا سبباً تمهيدياً لحركة اعمق واوسع نطاقاً . وقد بدأت هذه الحركة فعلاً عقب اعلان الدستور . وسنرى كيف تطورت مع الزمان . وكيف تغيرت اشكالها في شتى البلدان .

ولا يخفى ما كان للاجانب في السلطنة العثمانية من نفوذ سياسي واقتصادي وفكري . فهم اصحاب الامتيازات وفي معاهدتهم نشأ سواد المتعلمين ، فلا بدع ان يتولد في نفس الشرقيّ ازاءهم ما يسميه علماء النفس بمركب النقص او بالصغار الذاتي^(١) ، حتى صار عند الجمهور كل شيء غربي افضل من كل شيء شرقي ، تاجرهم اصدق ، وعالمهم اعلم ، وصانعهم احذق ، بل وعنصرهم اشرف وارقى . وجرى ذلك بين الناس في الشرق العربي والقوة حتى صار جزءاً من كيانهم النفسي . على ان النهضة العلمية اخذت منذ

القرن الماضي تعمل على اضعاف هذا الشعور ، فنشأ بين المفكرين من اثار على «الصغار الذاتي» حرباً شعواء داعياً الناس الى احترام النفس واکرام الوطن. كقول احدهم^(١) « كيف نؤمل نجاح صناعتنا وتأخر صناعتهم في بلادنا حال كون كل عربي يمدح صناعتهم ويطعن في صناعة بلاده ، ويفضل ما كان افرنجياً مهما كان » . وقد نظر الكاتب هنا الى الوجهة الاقتصادية وهاله ان يرى تأخر الوطني لتأصل فكرة سقيمة فيه . ومنهم من نظر الى الوجهة الاجتماعية او الروحية فآله ان يرى ما يسود الناس من اعتقاد بأفضلية الغربي وتفوقه الفطري على الشرقي . فقال^(٢) « ام لا ترى انك لو عنيت بأمر قومك عنايتك بالاجنبي تقوم بأمره وتولع بشكره ، لما لبثت ان ترى منهم من يبلغ شأوه وان كان ربيعاً ، ومن يدرك سعيه وإن كان سريعاً »

وعرف الغربيون ذلك الشعور في الشرقيين فاستغلوه بل تمادوا في استغلاله حتى صاروا لا يتورعون عن التشامخ على بني الشرق وامتھانهم في عقر دارهم. فمن الطبيعي ان يولد ذلك في نفوس الأباة من الشعراء والكتبة « رد فعل » يظهر في منظومهم ومنثورهم كما ترى في قصيدة للزهاوي قالها قبل الدستور ومنها^(٣)

كفى الغربُ فخرًا أنه مُتقدِّمٌ	وان له مالا به يتنعم
وان له في البرِّ جيشاً عرمرماً	يمائله في البحر جيش عرمرم
ترقى فلما استدَّ ساعدهُ عتا	وبات يغيظ الشرق والشرق يكظم
يطيل على اجحافه بحقوقه	سكوتاً كأن الشرق ليس له فمٌ
فيا أيها الغرب المدلّ بنفسه	رويدك ما هذا الغرور المذمّم
أترعّم ان الشرق يلبث صاغراً	أمامك مغضوباً وأنت المكرّم
وتبقي عليه هكذا متسيطراً	تصّدم الاموال منه وتهضم

والقصيدة حوالى ثلاثين بيتاً وكلها على هذا النسق من التبرّم بهذه الحال ويتخلّلها فخر بالماضي وأمل بالمستقبل . وعلى هذا النسق اقوال كثيرة^(٤) وظل الامر كذلك الى اوائل القرن الحالي حين أخذت الحضارة الجديدة تعمّ البلاد وحين توقّر الشرقيون على دراسة العلوم الحرّة ، فعفرّوا ما لهم وما عليهم .

(١) سليم البستاني . مجالي الغرر (١٩٠٦) ١٠٠ (٢) أدب اسحق في الدرر ١٢٨
 (٣) ديوانه (١٩٢٤) ٢٩٣ (٤) راجع ديوان احمد نسيم ١ - ١٣ و٧١ وديوان مصطفى الرافي ١ - ٢٦ ومفترقات في ديوان محمد عبد المطلب

وكبرت نفوسهم فصارت الطبقة المثقفة منهم تشعر بوجودها، فيسوّها ما تراه في الوطن من اثرة أجنبية وتحاول القضاء عليها بشتى الوسائل ولاسيا باحياء الروح الوطنية . على انها كانت تصطدم بالامتيازات الاوربية . ويفتّ في عضدها خنوع الدولة للجانب وجعل العامة معنى احترام النفس والوطن . وقد زاد الطين بلّة تلك النعرات الطائفية وما ولدته من ضغائن ومخاوف ، بما فتح الباب لتدخل الاوربيين بحجة حماية الاقليات ، وبالتالي لازدياد نفوذهم الروحي والسياسي وشيوعه في جميع انحاء الشرق

فلما اعلن الدستور وارتفع الضغط المضني عن اللسان والصدر ، اتقّد الشعور الوطني اتقاداً لم يعهد من قبل واخذ الادب العربي يتغنّى بالقومية تغنيّاً غريباً اشتركت فيه جميع العناصر والطوائف . وقلما كانوا لا يفرقون يومئذ بين الكرامة الشرقية والكرامة العثمانية ، بل ذهبوا الى ابعد من ذلك في حماسهم الدستورية فقبلوا للجانب ظهر المجنّ ورفعوا الهلال العثماني الى اوج التعظيم .

وقد كان شيء من ذلك قبل الدستور ولكنه لا يقاس بما وصل اليه بعده والذين ادركوا ذلك العهد لا ينسون قط تلك الهبة القومية التي كان لها في نفوس الشبيبة فعل المسكرات فأثمتهم حتى نسوا مساوئ العهد السابق ، واطلقوا لاقلامهم وألستهم العنان فجرت في هذا المضمار جري السوابق . فلا تستغرب اليوم اذا قرأت لاحد ادباء بيروت المسيحيين الاصلاحيين قوله من خطاب القاه في الاسكندرية (١) :-

« ليتجهج العثمانيون فقد نشر الدستور ، وجاء اليوم الذي التّم فيه شعث الامة العثمانية وتآلفت اعضاؤها ، وتآخت اجزاؤها . فكلنا بنعمة الدستور عثمانيون - عثمانيون لا نعرف غير هذا اللقب لقباً ، ولا نتخذ سواه نعتاً . عثمانيون قبل كل شيء . عثمانيون طول الحياة . عثمانيون مذهبنا الحرية وشعارنا الوطنية وفخرنا الراية الهلالية وملجأنا الدولة العلية »

ومثله ما جاء في لسان الحال من افتتاحية (٢) :- قال الكاتب يصف حالتنا الاجتماعية والروحية قبل الدستور ويقابلها بما صارت عليه بعده - « لم يكن حالنا حال المريض فقط . بل لا نجازف اذا قلنا اننا كنا قد بلغنا حال المحتضر . وطال هذا الدور (اي دور الاحتضار) الى ان اتانا الدرياق فنشطنا من عقال الخمول ووثبنا وثبة الاسد من العرين » وبعد ان يصف هذه النهضة يشير الى علاقة الوطنيين بالجانب فيقول (وهو

من المعروفين باعتدال المنهج) - « وسيروى الغريب من الفرجة وغيرهم كيف يعاد مجد الامم وتتجدد حياتها بقوة افراد رجالها »

وقال احد الكتبة المسلمين^(١) واصفاً ما كانت تقاسيه الدولة من السياسة الاوربية - « ان الدول كانوا يواصلون الضغط على جسم المملكة العثمانية ويضاعفون السعي لايقاع الشلل في عروقها الكثيرة الشعب . ولكن قضى ربك ان يرد كيد اولئك المتسابقين الى نهش هذا الجسم المتضعع الى نحرهم ، وتعود العثمانية بفضل الدستور قوية الشكيمة تقف في وجوههم وقفة الرئال لا جزعة ولا فزعة »

وعلى هذا المنوال نسج كثير من المقالات والخطب وكلها تشير الى ما كان يملأ النفوس من النعمة على الاجانب او على الاقل من الامل بنهوض الدولة فيسترد ابناؤها (التوك والعرب على السواء) مجدهم الغابر ولا يضطرون بعد ان يقفوا امام الاجنبي وقفة الضعيف امام القادر .

اما الشعر فحدث عن انتقاده الوطني ولا حرج . فيه اشتكت جميع الاقطار العربية والمهاجر حتى لبنان فانه برغم استقلاله الذاتي ورغم اتجاهه نحو الغرب علقت به شرارة من ذلك اللميب فكان من ابناؤه في الوطن والمهجر شعراء يهزجون بتعظيم الانقلاب والاستبشار به ، ويهللون للعرش العثماني وابطال الحرية . ومن اراد الاطلاع على ما قيل في هذا الباب فليرجع الى الصحف العربية في العامين ١٩٠٨ و ١٩٠٩^(٢) وبما لا ريب فيه ان الشعر الدستوري في السنتين المذكورتين مفعم بروح التفاؤل شديد الحماسة للكرامة الشرقية والجامعة العثمانية . سواء في ذلك المسيحي والمسلم ، الناعم على سياسة عبد الحميد او غير الناعم . ومن امثلته هذان البيتان لسعيد شقير من قصيدته المار ذكرها -

لازلت يا جيشنا فخراً لامتنا وحظاً اعلامك الاجداد والغلب
نرقى المعالي وتركيّاً لنا وطن للعزّ والمجد فيها ترفع القب

والايبات التالية من قصيدة للدكتور نقولا فياض^(٣)

يا بني عثمان انا امة اصبحت موضوع اعجاب الامم

(١) طه المدور في لسان الحال ٢٢ شباط (فبراير) ١٩٠٩

(٢) راجع خصوصاً المشرق (بيروت) (٣) راجعها في مجلة الهلال ١٧ - ٨٧

سيعيد العدل تاريخاً لكم طبع المجد به منذ القدم
في حمى جيش عزيز باسلٍ واسع النعمة كشف الغم

وبعد ان يصف حماة الدستور الاحرار وافعالهم المجيدة وخوارج الامة يلتفت الى الغرب وعلاقته بتركيا فيقول : -

قل لاهل الغرب عنا حسبكم ان للاتراك بأسماً وكرم
حرروا الشرق وذوي افعالهم جددت صوته بعد الهرم

وكأنه يرى ما كان يراه كثيرون من ان الاجانب سبب التفريق بين الشرقيين فيقول :

ولمن يطمع في تفريقنا كان للتفريق عهدٌ وانصرم
غير دين الحب لا دين لنا نحن في البؤس سوءاً والنعم

ولعل الابيات التالية تمثل نزوات الشباب الوطنية عهدئذ وعصبيتهم الشرقية الثائرة . وهي من قصيدة تليت يوم افتتاح « المبعوثان » (البرلمان العثماني)^(١) وتصف تألم الشرقيين من غطوسة الغربيين وشعورهم ان العهد الجديد سيضمن للشرقي حقوقه وكرامته . تبدا بذكر ما كانت عليه مصر وسوريا وما كان يعانيه اباء الضيم فيها وفي سائر الافطار العربية من صلف الاجانب حتى يحمل الناظم شعوره الى قوله : -

أترضي الذل من أيدٍ نقبِلها كأنها للهدى والدين معتصم
ونحن نحقر في القطرين سيدنا ونكرم الزعنف الصعوك بينهم
دأءُ سرى في دم ابن الشرق فانقلبت أهلوه لا همم فيهم ولا شيم

ويتقدّم من هنا الى ذكر الانقلاب الدستوري وانبثاق النور الجديد من العرش العثماني وان هذا النور سيجلو ظلمات الهوان عن البلاد وسيربطهم معاً برابطة الوطنية الحقة والولاء لصاحب العرش . ثم يلتفت الى الغرب فيقول متحمساً

لظي من النيل للدانوب متقدّ الى العراق الى البحرين ملتهم
ان يكرمونا فان الشرق يكرمهم او يحقرونا فان الشرق منتقم

وبما يلاحظ ان هذه الحماسة كانت شديدة الاتقاد في شعراء المهاجر . كقول احدهم^(٢)

(٣) اداب القرن التاسع عشر مشيخو ٢ - ١٧٣

(١) للمؤلف سنة ١٩٠٨

حسب الغرب هبة الشرق نوماً ورماها بأنها وهمية
كذب الغرب ان في الشرق قوماً بشفار الصمصام شقوا الدجيه

وليس ما قدّمناه الا نماذج قليلة من الشعر الوطني الذي انشأه الامل الدستوري في الاوساط الادبية المسيحية، فما قولك بالاوساط الاسلامية وما نشأ فيها من حماسة شعرية وما اثارته من عواطف قومية والمسلمون عموماً اكثر ميلاً الى العثمانية واشد نفوراً من السيطرة الاجنبية

ومن الخطأ الفادح ان يُساء الظن بتلك العواطف الوطنية وان يقال انها لم تكن الا من قبيل التزلف او المداهنة . قد تكون عواطف مغترّ او سكران ولكنها كانت يومئذٍ تخرج من قلوبٍ كان كثير منها طافحاً بالامل والاخلاص . واليك تركيةً لذلك قول استاذ عرف ببعد نظره وترويه في الامور . فقد نشر له 'المقتطف خطبة' اختارها من بين كثير من خطب ذلك العهد اذ رآها من ادل ما انشئ في وصف تلك الحالة^(١) . وقد جاء فيها وصف دقيق لحالة العثمانيين قبيل الدستور كقوله - « كنا منذ بضعة اسابيع والصدور خائفة بما فيها والنفوس واجمة من هول ما ترى من موقفها ، والعقلاء النزهاء لا يدرون ماذا يصنعون ولا ماذا يقولون . وكأننا اطبقت عليهم السماء او سدّت عليهم منها منافذ الرحمة . وبينما نحن في هذه الظلمة المدهمة وفي حالٍ من اليأس والقنوط ما شهدنا مثلها ولا آباؤنا الاولون سطع علينا بغتة نور القانون الاساسي فأشرقت على آثاره شمس الحرية الشخصية والحرية القومية والحرية الفكرية الادبية » ثم يتقدّم الى شرح معنى الدستور وتأثيره حتى يصل الى قوله - « ترون مما ذكرته في بيان حقيقة الدستور اني لا ارى ان افراحنا به صيانيات تافهة ولا احتفالاتنا ومظاهراتنا الخارجية تكرمه له ولحماته تهوّسات ضارة . بل هي مهما بلغت مع القصد والحكمة قليلة في جنب اهميته ومقدار قيمته . واي قيمة اعظم من قيمة الحياة - حياة الفكر والقول والعمل المشروع للفرء ، وحياة العزة والقوة والتوازن والاستقلال والاستبسال للامة . فمن اراد الحياة فليقل ليحيى الدستور العثماني والقائمون به ومن اراد الموت موت الذل والصغار والاستعباد فلا رحمه الله . وليت هذا الشخص من بين جماعة العثمانيين الحرّة »

وقد شعر الاستاذ كما شعر اكثر العقلاء يومئذ بطغيان ذلك التيار الوطني وخشي كما خشوا ان يقود الى الغرور والتهور او ان يستغله اهل المآرب فناسد الناس قائلاً « دعوا التسرع فان تسرعكم لا يفيدنا الآن وان كنتم اخلص المخلصين واغبر اهل الغيرة الحققة على شرف العثمانية ومصلحة العثمانيين . انا في حاجة الى المخلصين اصحاب العلم والخبرة الذين قبل ان يقولوا يفكرون ويتروون وبعد ان يقولوا يفعلون كما يقولون . مثل هؤلاء تطمئن اليهم نفوسنا ونسلم اليهم قيادنا وتديبونا »

ومن ظواهر الاعتزاز بالوطنية في ذلك الحين تلك الغارات الشعواء التي شتها الشعراء على بعض الدول الاوربية لتعديها على بعض الممتلكات العثمانية وضمها نهائياً الى املاكها . كما فعلت النمسا بالبوسنة والهرسك ، واليونان بكريت . ثم ما فعلته ايطاليا بطرابلس الغرب : فكان شعراء العربية على اختلاف فخلهم ومنازعهم يداً واحدة على المعتدين . وكان شعرهم غالباً كالبحر النائر يرمي صخور الشاطئ بالزبد الصاخب . كقول شبلي ملاط من قصيدة وطنية^(١)

الا من يبلغ النمسا كلاماً نسجله ونورثه البنية
بان عهودها كانت سراياً وكان ودادها (بلفاً) مبينة
فلا تجد السنون الى التصافي سبيلاً ما تعاقبت السنونا
او النمسا تكفر عن ذنوب جنتها فاغتدت عاراً وهونا
اتحسب جارة الدانوب اننا نذل لمثلها ابدأ جينا

ولا ريب ان الشاعر كان في هذه الابيات يعبر عن الشعور العام في المملكة العثمانية ، وقلماً خطر يومئذ بباله ان « جارة الدانوب » ستصبح عن قريب حليفة الدولة العثمانية في الحرب العالمية . وفي حادثة كريت كان من تحمس العثمانيين عموماً ما حمل شاعراً لبنانياً آخر على نظم قصيدة بدوية النزعة ومنها^(٢) :-

اظنّ بنو اليونان ان سيوفنا تثلّمن ام اخنى علينا التأخر
الم يذكروا بالامس ما كان بيننا على حين خضنا الموت والموت يزخر

لهل يشير بذلك الى الحرب اليونانية العثمانية سنة ١٨٩٧

(١) راجع شيخو ١٧٧ (٢) لامين ناصر الدين راجعها في ديوانه صدى الحاضر تحت موضوع غادة كريت ص ٢٥ وكذلك في شيخو ١٩١ على ان في الروايتين بعض الاختلاف

صدمناهم تحت العجاجة صدمةً كما راع اسراب الظباء غضنفر
وكان لنا معهم وقائع لم تزل احاديثها في الخافقين تكرر
ومنها يخاطب اليونان :-

تحيّنتم وقتاً توات خطوبه لادراك امر نيله متعذر
وخلمت توالي الظلم اورث شعبنا خمولاً واصبحنا على الهون نصير
قهرناكم والملك قد كان ذاوياً فكيف وروض الملك فينان اخضر

أي قهرناكم أيام عبد الحميد والدولة في حال البؤس فكيف الآن وهي زاهية بعهدا
الدستوري الجديد

فما ضمّ إكريتٍ بسهلٍ فدونهُ صدام الرزايا والهلاكُ المقرّر^(١)
ولشاعرنا اللبناني نفثات كهذه في حوادث البلغار وأدرنه وحرب طرابلس الغرب
وغيرها من الوقائع السياسية التي كانت مشاراً للخواطر قبل الحرب الكبرى
ومثل ذلك تجده في الشعر العراقي . فالرصافي مثلاً ، وقد عرفنا انه كان قبل
الدستور من الاحرار أو الناقمين على سياسة الحكومة الحميدية ، اصبح بعده من المغالين
في نصرتها ، المتحمسين في مقارعة أعدائها . وله قصائد رائعة يستنهض فيها المسلمين الى
الجهاد ذوداً عن الوطن العثماني كقوله من قصيدة في الحرب الطرابلسية موضوعها
« الى الحرب »^(٢)

ألا انهضْ وشمّر ايها الشرق للحربِ وقبّل غرار السيف واسلْ هوى الكتبِ
ولا تغتور ان قيلَ عصرٌ تمدّتْ فان الذي قالوه من اكذب الكذبِ
الست تراهم بين مصرٍ وتونسٍ اباحوا حمى الاسلام بالقتل والتّهبِ
وما يؤخذ الطليان بالذنب وحدهم ولكن جميع الغرب يؤخذ بالذنب

وله اشدّ من ذلك في هذه الحرب وفي ادرنه والبلقان وسواها . والظاهر ان اقامته
في الاستانة قد اثرت كلّ التأثير في الناحية القومية الدينية من نفسه . فلما نشبت الحرب
العالمية وخاضت غمارها تركيا الى جانب المانيا والنمسا اخذته الحميّة الدينية كما
اخذت كثيرين سواه فنظم قصيدة موضوعها « الوطن والجهاد » يدعو فيها المسلمين

(١) والظاهر ان هذا البيت حذف من القصيدة في صدى الخاطر (٢) راجعها وراجع
امثالها في باب الحريات من ديوانه (بيروت ١٩٣١)

الى قتال اعداء الوطن والدين (اي الحلفاء). ولكي يدرك القارىء ما كان يسود بعض الاوساط العربية في ذلك العهد (اي قبل ان تبدل الحال بظهور الدعوة العربية والثورة الحجازية ،) ننقل له منها بعض ابياتها الاولى - قال :-

يا قوم ! إن العدى قد هاجموا الوطناً فانضوا الصوارم واحموا الاهل والسكناً
واستنفروا لعدو الله كلّ فتى من نأى في اقاصي ارضكم ودناً
واستنهضوا من بني الاسلام قاطبةً من يسكن البدو والارياف والمدناً
واستقنوا في سبيل الذود عن وطنٍ به تقيمون دين الله والسنناً

وبعد ان يجري شوطاً في هذا المضمار يلتفت الى مصر فيندد بحكومتها (او قل
بسلطانها يومئذٍ ووزارته) لجاراتهم الانكليز والانتقياد لسياستهم . ويعود بعد ذلك
الى الوطن والدعاء له فيقول

لازلت يا وطن الاسلام منتصراً بالجيش يزحف من ابنائك الأمتنا
إننا نحبك حباً لا انتهاء له يستغرق الارض والاكون والزمننا

ويخصّ العراق بالقسم الاخير من القصيدة وما اشيع عن اقتراب العدو منه ،
فيخصّ العراقيين على الاستبسال في صدّه -

إن العراق لعمر الله مسبعةٌ تواب الأُسُدُ فيها من هنا وهنا
هم المغاوير ان صالوا بملحمةٍ فلا يرون لهم غير المنون منى

ويجري مجرى الرصافي من شعراء العراق رضا الشيباني ومحمد حبيب العبيدي ،
وخيري الهنداوي ، ومحمد الحسين كاشف الغطاء ، وعبد العزيز الجواهري وسواهم ممن
نفخ فيهم الدستور روحاً جديدة فحملهم على مناصرة الخلافة والتهجّم على اعدائها في
اوروبا، واضرم فيهم النعرات الشرقية والدينية، حتى قال احدهم من قصيدة موضوعها
« بعد حرب الطليان والبلقان » . (١)

اظهر الغرب ما اجنّ من الغدر - وابدى كوامن الاضغانِ
واحاطت بالمسلمين علوج البغي - من كل جانبٍ او مكانِ
ايها المسلمون هبّوا فليس الموت - الا حياتكم بهوانِ

(١) محمد كاشف الغطاء . راجعها في كتاب الادب المصري في العراق لروفايل بطي الطبعة

قد دهاكم ويلٌ فماذا التّادي وأتاكم سيلٌ فماذا التّواني
جاءكم جارف من الغرب تيّارٌ - يهدّ البنا وأسّ المباني

ولجيب العبيدي قصيدة اسمها « ألواح الحقائق » القاها في المنتدى الادبي العربي في الاستانة بعد خطاب له في الحرب الطرابلسية وهي تقرب من خمسمائة بيت وقد ضمّنها أهمّ الحوادث التاريخية من عهد الرسالة الى زمن انشادها^(١). وما نقل اليها منها يصح ان نحكم انها تعبر تعبيراً جلياً عن هذه الهبة المعنوية في نفوس الشرقيين وعن أمانيتهم في ارجاع مجدهم الغابر ونفض ما كان قد لحق بهم من عار التأخر - كقوله -

كيف ترضى يا شرق ان يمشي الغرب اماماً وانت تمشي وراء
أفلم يأنّ ان تجدد عهداً شهد الصّبح فضله والمساء
أنسام الهوان دون المنايا انما الموت والهوان سواء

وهو يصل هذه النهضة الشرقية بمجد العرب الاقدمين ويحتّمها بذكر مفاخرهم التاريخية . ويدعو بني الشرق عموماً الى النهوض والجري في سبل العلى والتقدّم . ومثل ذلك خيرى الهنداوي في قصيدته « ايها الشرق »^(٢)، وقصيدته « فتاة سلانيك »^(٣) ومن هذه الاخيرة قوله متألماً -

أمّ البلاد أضاعك الافوامُ فبكى مرابع مجدك الاسلامُ
يا ايها الشرق الذي قد عمّه للغرب من بعد الشروق ظلامُ
ما الغرب اوّل ظالم لك بالذي يأتيه بل ابناؤك الظلامُ
قد أهملوك وانت معقل عزّهم فاستهونتك بوطئها الاقدامُ

ولقد يجوز ان نتّهم بعض شعراء ذلك العهد بمداينة الاتراك وان شعرهم لذلك لا يعكس لنا الشعور العربي الحقيقي . وهنا نكرّر قولنا اننا انما نؤرخ العواطف العربية كما تظهر في نثاق أدباء العرب الشعرية ، ومهما تكن الاغراض النفسية وراءها فذلك لا ينفي حقيقتها وانما ناشئة عن الحوادث متصلة بالشعور العام . والحقّ يقال ان ما اختبرناه بأنفسنا ، وما عرفناه من اختبار الآخرين يدفعنا الى تنزيه كثير من الشعراء يومئذ عن المداينة المقصودة ، ويميل بنا الى ان نعزو عثمانيتهم الى ما أثارته الاحداث

(٢) الادب المصري ١ - ١٦٦

(١) راجعها في الادب المصري لبطي ١ - ١٦٨

(٣) الادب المصري ١ - ١٧١

السياسية من شتى النعرات في نفوسهم^(١)

ففي أوائل العهد الدستوري كانت الشعر العربي في سوريا ومصر والعراق مجلياً لالوان من الوطنية غير واضحة الحدود . ولكن كما ان ألوان الطيف اذا مزجت معاً كوّنت شيئاً واحداً هو النور . كذلك تلك الالوان العاطفية من دينية او قومية مرجعها واحد هو الاحساس الحادّ بكرامة شرقية لم يعدها الشرقيون او العرب منهم قبل ذلك العهد . وقد كان لنشوة الدستور يدٌ في تعميم ذلك الاحساس والبأسه حيناً لباس الجامعة العثمانية . وكانت تلك النشوة على اشدها في السنة الاولى من اعلان الدستور ايام كان الناس لا يزالون يطفرون فرحاً بزوال الاستبداد ، وينظرون الى المستقبل بعيون التفاؤل والاستبشار ، ثم اخذت بالتراخي تدريجياً

على ان النزعة الشرقية المصطبغة بالصبغة العثمانية ظلت بارزة في الادب العربي الى اوائل الحرب العالمية . وما يزيك ذلك ما نظمه الشعراء سنة ١٩١٣ في حادثة الطيارين التركيين فتحي وصادق وهما اول طيارين شرقيين ظهرا في سماء الشرق العربي . فلما وصلا سوريا ولبنان قابلهما الادب العربي بهبة وطنية هزّت اعصاب الناس وأثارت نخوتهم الشرقية او قل العثمانية . كقول الشيخ مصطفى الغلاييني من قصيدة حماسية :-^(٢)

خيمت فوق الرؤوس فأشرقت منا الوجوه وأزهرت انوارها
وفتحت يا فتحي القلوب بزمرة احيا موات رجائنا تذكّارها
ونزعت منا اليأس وهو بلية شعاء عمّت قومنا اضرارها

ومثل هذه الحماسة الوطنية تتجلى في اقوال اكثر الشعراء لذلك العهد . ثم طار الطياران يقصدان مصر، ولكن القدر المحتوم لم يمهلهما فسقطا قرب طبريا وكان لمصرعهما رنة اسف عمّت جميع الاقطار العربية . وقد جعلها الشعر العربي مثال الوطنية الشرقية المتحفزة لمباراة الغرب . وفي ذلك يقول الياس فياض -^(٣)

فتحي أطلّ من العلاء مكذباً من قال إنا امة لن تقدما
من قال ان الشرق شعبٌ خاملٌ لا يستطيع مع الشعوب تقدماً
اليوم قد جدّدنا لشبابه عهداً ينسّي عهده المتصرّما

(١) راجع ايضاً ديوان عبدالمطاب ٢٨٥ والباروني ٥١ والرافعي ٢ - ٢٩٦ والكاظمي ٩٩١ والمطران في الهلال ٢٠ - ١٨٢ وعبدالحليم المصري في آداب العصر لسعد ١٨٨
(٢) المورد الصافي ٥ - ٢٦٣ (٣) المورد الصافي ٥ - ٣٠١

أهرقنا للعلم افضل مهجة كانت تراق على المظالم قبلها
هذا هو الدرس المفيد وهذه عظة الزمان فهل لنا ان نعلم
من ليس يعرف ان يموت مكرماً هيهات يعرف ان يعيش مكرماً

ويتجلى شعور المصريين يومئذ في قول شاعرهم حافظ من قصيدة^(١)

أخت الكواكب ما رماكِ وأنتِ رامية النور
ماذا دهاكِ وفوق ظهركِ مريض الاسد المصور
ومنها مخاطباً قتي: حاولت ان تردّ الحجرَ والورودُ من العسير
فوردتْ يا قتيحي الحمامَ وأنتِ منقطعُ النظر
وهويت من كبد السماء وهكذا مهوى البدور
ان كان اعيالك الصعود بذلك الجسد الطهور
فاسبح بروحك وحدها واصعد الى الملك الكبير

ومثلها قصيدة لعبد المطلب مطلعها: « وقفت لك الدنيا فسيري^(٢) » وقصيدة
شوقي: « انظر الى الاقمار كيف تزول »

وعلى هذا النمط نظم كثير من الشعر الوطني في بيروت ودمشق وبغداد والقاهرة
وسواها من حواضر العالم العربي

واذا قيل كيف ذلك والعرب يومئذ كانوا قد بدأوا يستنكرون سياسة الاتحاديين
الاتراك ويتشوقون الى حياة قومية وكيان مستقل بدليل ما نراه من جمعاتهم
السياسية في مصر وغير مصر قلنا ان تلك الجمعيات لم تكن تملك من وسائل الدعاية ما
يشيع في جميع الانحاء مبادئها او ما يجمع القلوب على نصرتها . فظلّ السواد الاعظم
من ابناء العربية متعلقين بآمالهم الدستورية لا يرون لهم من رابطة غير الخلافة
العثمانية . ثم ان الحركة العربية الاستقلالية لم تكن قد نضجت نضجاً كافياً لتأصيل
فكرة الانفصال عن الجامعة العثمانية . ويخيل لنا من دراسة عواطف الناس في ذلك
الحين ان الزعماء الذين كانوا يعملون في سبيل الفكرة العربية لم يكونوا على بينة من
هذا الامر . ولو راجعت الرسائل التي كان يتبادلها سرّاً امثال عبد الحميد الزهراوي ،
وتختار بيهم ، ومحمد المحمصاني ، وسليم الجزائري ، ورشيد رضا ، واخوانهم من اعضاء

المؤتمر العربي او الجمعية الاصلاحية ، لوجدت ما يزيكي قولنا ان الاصلاح الذي كانوا ينشدونه لم يكن يراد به اولاً القضاء على الرابطة العثمانية والاستهداف لمطامع الاستعمار^(١). ولو عرفت تركيا يومئذ كيف تستغل شعور الناس لالتفت من الكتلتين التركية والعربية جامعة عزيزة الجانب صادقة الوطنية لكن السياسة العنصرية الحادة حالت دون ذلك ، فكانت من الاسباب المعجلة لنجاح الدعايات الاوربية في الشرق العربي ، ثم لاشتعال الثورة العربية في اثناء الحرب الكبرى (سنة ١٩١٦)

وسواءً أصبح استنادنا الى تلك الرسائل أم لم يصح فالواقع المشاهد ان الشعر العربي كان في أوائل العهد الدستوري أسرع الى الصفح عن مساوئ العهد الماضي والى تعزيز الرابطة العثمانية . ثم حدث الاحتكاك بين العنصرين التركي والعربي وأخذ البعض يلهجون بحقوق العرب في السلطنة وقد ظهر ذلك في الشعر العربي (كما سنرى) . على ان الشعر لم يقطع صلته بفته بآماله الدستورية التي كان يشيد بذكرها . وقد ظل طيلة العهد الدستوري أميل الى التوفيق بين الأماني القومية والجامعة العثمانية ولو تأملنا لرأينا انه لم يصبح عدواً لهذه الجامعة الا بعد الثورة العربية والحرب العالمية

فليس من الغريب ان نراه من حين الى آخر يتأجج بالشعور العثماني إزاء بعض الحوادث الوطنية كالتي مر ذكرها من حوادث التعدي على الدولة في البلقان وطرابلس او من حادثة الطيران التي اضرمت القلوب في مختلف الاقطار حتى قال فيها شاهد عدل هو الدكتور هورد بلس رئيس جامعة بيروت الاميركية سابقاً وكان يوم الحادثة في مصر - « ان ما آتسته من حماسة اخواننا المصريين وشدة استعدادهم لاستقبال الطيارين واقامة المآدب والاحتفالات الثلاثة بهما جعلني اتصور شيئاً مما سمعته عن عظمة الاستقبال الذي جرى لهما في بيروت وعن الابتهاج الذي شمل الاهلين لمشاهدتهم الطيارين العثمانيين لأول مرة »^(٢)



(١) راجع هذه الرسائل في كتاب ثورة العرب (لاحد أعضاء الجمعيات العربية) مطبعة المقطم

(٢) مجلة الكلية ٥ - ١٣٨

١٩١٦ ص ١٢٧ - ١٣٨

الدستور

والعرات المذهبية

إن من يعرف الشرق العربي قبيل الدستور يعرف ما بلغه من الاختلال الاجتماعي والاقتصادي . فسياسة الحكومة الحرقاء والدعايات الأجنبية المختلفة كانت من أفعال الوسائل لتوسيع شقة الخلاف بين أبناء البلاد حتى أصبحت البغضاء الطائفية مستحكمة الحلقات وكثيراً ما كان ذلك يفضي الى « حوادث » دامية وشرّ مستطير^(١) . ومهما نحاول تخفيف الامر فلا سبيل الى انكار ما كان في العهد الحميدي من حزازات بين الاكثرية والاقلية ، بل بين الفروع التي تنتمي الى كلٍّ منهما . وفي ذلك يقول سليمان البستاني وهو عثماني صميم ومن الذين خدموا الدولة نائباً ووزيراً « لم يكن من مصلحة ظلمة الاستبداد في الحكومة الغابرة ان يؤلفوا بين القلوب اذ كانوا يعتقدون لجهلهم ان وفاق الامة يدك معاقل صولتهم »^(٢) والى هذه الحال يشير بطل الانقلاب نيازي بقوله من خطبة القاها في جمعية الاتحاد والترقي وذلك قبيل اعلان الدستور^(٣) « تعاملون ان سفالة الحكومة وجبنها وهونها صيرتنا سخرية بين الناس والذي يجب ان نقوم به لقاء الحكومة ولقاء مؤامرة اوربا على تقسيمنا هو ان نثبت فعلاً في ثورتنا هذه اننا نحب المسيحيين كاخواننا ونساوي بينهم وبيننا . فليست ثورتنا ضد الاشخاص والعناصر بل هي نهضة ضد اصول الادارة التي اوقعت العداوة بيننا وبين اخواننا في الوطن » . فنيازي هنا يصرح بهذه الحقيقة المؤلمة ويعزو اللوم في ذلك الى سوء الادارة من جهة والى سياسة المستعمرين من جهة اخرى . ولقد يصح ان نستثني مصر لما كانت تتمتع به من حرية اجتماعية بعد الاحتلال . على ان سائر البلدان العربية ولاسيما سوريا كانت

(١) راجع وصف هذه البغضاء الطائفية في كتاب حوادث الشام ولبنان لمخايل الدمشقي (المطبعة الكاثوليكية ١٩١٢) ص ١١ و ٢٠ و ٢٨ و ٢٩ وايضاً كتاب حشر اللشام عن نكبات الشام مصر ١٨٩٥ ص ٣٦ (٢) كتابه عبرة وذكرى (١٩٠٨) ص ١٠١
(٣) من تأملات نيازي راجع المورد الصافي ١ - ٦٢

— كما هو معروف — تتخبط في دياجير التعصب وتقاسي منه الاهوال . فلا عجب اذا رأينا السوريين والبنانيين يهاجرون الى وادي النيل او يضربون في آفاق الارض سعياً وراء الرزق والحرية . وقد اصاب حافظ ابراهيم اذ قال في وصف هؤلاء المهاجرين^(١)

لم يحممهم عَلمٌ فيها ولا عدوٌ سوى مضاء تحامى ورده التوبُّ
لهم بكلّ خضمٍّ مسرب نهج وفي ذرى كل طودٍ مسلك عجب
ما عابهم انهم في الارض قد نثروا فالشهب منشورة مذ كانت الشهب

ولا ينكر ان كثيرين من العقلاء كانوا يرغبون في الحسنى وفي القضاء على هذا الاختلال الاجتماعي المؤذي ، لكن السياسة على ما يظهر لم تمكنهم من ذلك فلما أعلن الدستور ونودي في الناس بالحرية والمساواة والاخاء زال الضغط فجأة عن الصدور حتى رأينا من غريب المشاهد ما كان له اثر عميق في ادب ذلك العهد . زعماء الطوائف يتعانقون في الساحات العمومية ويتعاهدون على المودة الاخوية . قال الدكتور هورد بلس من خطبة له القاها في الجمعية الجغرافية الوطنية باميركا (في ١٨ ديسمبر ١٩٠٨) ذاكراً تلك الحال في بيروت —^(٢) « فأطلقت حينئذ الحرية في المدينة ولم يعد الناس يتالمكون ضبط نفوسهم عن اظهار بهجتهم — والناس الذين قضوا السنين الغابرة والعداوة بينهم مستحكمة صاروا الآن اصدقاء اغزاء في الحفلات والجمعيات وصار رؤساء الدين من المسيحيين والمسلمين يتضامون ويتعانقون . قطعت الاغصان من الاشجار وأتي بالبسط من المنازل واكتظت الشوارع بالناس فكانوا يضيفون اخوانهم الذين فقدوا صداقتهم زماناً طويلاً . وكانت امارات المودة والالفة ظاهرة في كل مكان حتى بين الرعاع وذوي الجرائم »

ولنترك لاديب بيروتى معروف وصف مشهد من هذه المشاهد وهو النموذج لما حدث في اهم الحواضر العربية قال —^(٣) « من ابهج ما رايت من هذا الوفاق ان نفراً من شبان حيّ السراي (حي اسلامي) ركبوا العربات فسارت الى محلة الجميزة (حي مسيحي) فجدّوا عهود الاخاء مع اخوانهم المسيحيين بعد ان ابلاها الجهل ورجال السوء . هناك تأخى الفريقان وتحابّب القبيلان وعلموا ان العثمانيين جسم واحد تديره روح واحدة »

(١) من قصيدته الشهيرة (لمصر ام لربوع الشام تمتصب) (٢) راجعها في المقتطف ٣٤ ٣٥٠

(٣) مصطفى الفلايبي في لسان الحال ١ آب ١٩٠٨

ويذكر هذه الشهادة ما ذكرته مجلة الهلال عن بيروت اذ قالت (١) - « اظهر اهل بيروت بعد اعلان الدستور ما ادهش العثمانيين من الاتحاد والحرية الشخصية وصحة المبدأ . فقد كان اهلها اول من تصافح فيهم الشيخ والقسيس . وظهروا في اثناء انتخاب النواب لمجلس الامة استقلالاً في الفكر واتحاداً في الكلمة . ولما وثب بقية حزب التقهر بجمعية الاتحاد والترقي بالاستانة كانوا في مقدمة الناقمين على الوائين . وقاموا يؤيدون الدستور بخطبهم ورسائلهم . وعثروا على بعض الجواسيس يسعون في التفريق بينهم فقبضوا عليهم . وجدّدوا الوفاق بين طوائفهم . وقالوا اذا تباغضت الطوائف في كل المملكة فنحن متفقون في نصره الدستور الى آخر نسمة من الحياة » وللشعراء في هذا الوفاق وفي الحزب على نبذ التعصب الذميم قصائد كثيرة نختزى منها ببعض مقطعات على سبيل التمثيل . فمن ذلك هذه الابيات (٢)

قد صرتم امة في الارض واحدة	من آل عثمان لا عرباً ولا عجماً
فلا تفرقكم اجيالكم فرقاً	ولا تقسمكم اديانكم قسماً
كم قيدوكم بها اسرى وكم سفكوا	دماءكم او احلوا فيكم النقا
واليوم جرد سيف الحق صاحبه	وهاجم الظلم حتى فر منهزماً
تعانق الشيخ والقسيس واصطحبا	من بعدما افرقا ضدين واختصما
تأخيا في حمى الدستور واتحدا	ورفرت راية التوحيد فوقهما

وهذه النغمة تسمعها في بيروت كما تسمعها في دمشق وبغداد وسواهما . فمن دمشق مثلاً قول احد ادبائها (٣) من قصيدة : -

ايها الشرقي قد بلّغت ما	كنت ترجوه فهل ثمّ خلل
فانبذ البغضاء والحق ودع	كل ما فيه فساد وزغل
كل من في الشرق اخوان فلا	فرق بين الخلق من كل النحل

ومن العراق قول الرصافي (٤)

اكرم بعصر حباناً بالمساواة وخصنا بالتهاني والمسرات

(١) الهلال مج ١٧ - ١٩١٦ (٢) الهلال ١٧ - ١٩١٢ (٣) محمد شاکر یاسین : شیخو ٢ - ١٦٥ (٤) من قصيدة : راجع شیخو ٢ - ١٦٤ (ولم نجد لها في ديوان الشاعر)

عصره به قد تأخينا فليس ترى بعد الأخاء طريقاً للعداوات

ومن مصر نقولا رزق الله^(١) وغيره من الابداء

والذي يظهر من مراجعة النفثات الدستورية ان هذا الشعور المتألم من مساوي التعصب الديني كان أبرز في الشعر السوري اللبناني منه في سائر الاقطار العربية. ولعل من أسباب ذلك أن مسألة « الاكثرية والأقلية » لم تبلغ في مكان ما بلغته في الاقطار السورية. فمصر كما ذكرنا كانت تحت نفوذ الاحتلال، والعراق قطر اسلامي لا قوة للأقلية فيه وبالتالي لا تنافس طائفي موجب للبغضاء. وان كانت شيء من ذلك في ذلك الحين بين المسلمين أنفسهم من سنية وشيعة. ولم يظهر في الشعر العراقي من اشارة الى احتكاك المسلمين بالمسيحيين الا في عهد الانتداب، كما ترى في قصيدة وجهها الرصافي الى المسيحيين ومطلعها^(٢) -

أما آن ان تنسى من القوم اضعان فيبنى على اس المساواة بنيان
علام التعادي لاختلاف ديانة وإن التعادي في الديانة عدوان
إذا جمعنا وحدة وطنية فماذا علينا ان تعدد اديان

وهي طويلة وتنشف عن خوف العراقيين من السياسة العاملة على هدم الكيان القومي بالتفريق بين طوائفه. وسنرجع الى ذلك بعد

اما سوريا وبنوع خاص منطقتها الساحلية التي تشرف عليها جبال لبنان فقد كان التنافس الطائفي فيها على اشدّه، وكانت دائماً اكثر تعرضاً للدعايات الاجنبية واكثر اختلاطاً بالحضارة الغربية. فنشأ عن ذلك ضعائ ووقائع دموية كان لها اثر عميق في النفوس. فلا بدع ان نرى الشعر السوري واللبناني في ذلك العهد اشدّ تهجماً على التعصب الديني واكثر ترحيباً ورجاءً بالعهد الجديد. وقد حملت النشوة الدستورية بعضهم على الخروج عن جادة الاعتدال. فلم يقفوا عند حدّ التهليل بالأخاء والدعوة الى نبذ الاحقاد، بل تجاوزوه الى درجة التطرف فصاروا يعززون الى الدين ورجاله كل أسباب التعصب والشقاق، ويرجعون اليهم كل ما اصاب الشرق من البلايا الاجتماعية، كقول احد شعراء المهجر^(٣)

(١) المتقطف ٤٠ - ٣٨٩ (٢) ديوانه (١٩٣١) ١٥٠

(٣) ابو الفضل الوليد في « أغاريد وعواصف » ٤٠

وإني ليوهني تقسم امتي بأديانها والشر بين المذاهب
متى ينتهي كهاننا وشيوخنا فنخلص من حياتهم والعقارب
شقينا لنعمهم وراحتهم فهم يسوقوننا كالغيس نحو المعاطب
فما الدين إلا نسخة بعد نسخة يزخر فيها للناس أهواء كاذب

وفي الشعر الدستوري كثير من مثل هذا التطرف (ومعظمه في الاوساط المسيحية) . فلا عجب اذا راينا رجال الدين ينكرون ذلك ويقاومونه كما فعل الاب لويس شيخو في كلامه على الحماسة الدستورية اذ قال (١) . « واسوأ من هؤلاء (اي المبالغين والمتهوسين) اولئك الذين توسلوا بالدستور فاستباحوا في شعرهم ذمار الدين وانتهكوا حماءه ونجسوا حق ممثليه . فتوى هذا ينسب الى الدين كل الشرور واسباب النفور، والدين كما لا يخفى يأمر بالاخاء والتحاب: وغيره يدعي ان الدين لا دخل له في العمران وانه من المسائل العرضية (كقوله)

خل قسبي وشيخكم في جدال واحك لي في المسائل الجوهرية
واذا ذكر الذين حكم عليهم بالظلم وقت الاستبداد تعجب انهم لم يكرموا كآلهة
مثل السيد المسيح

مات عيسى فألتهه الوف والوف ماتوا وراحوا ضحيه
« ويجعل آخر كل الاديان متساوية وكلها صحيحة » ... الى ان يقول .. « فنشكركم
ايها الشعراء صونوا قرائحكم من كل امتهان ولا تبذلوا موهبة جادها عليكم المنان »

ولا بد لنا من القول ان هذه الحرب التي اثارها الشعر الدستوري على التعصب الديني قد احدثت شيئاً من التقارب المنشود ، لكنه لم يكن ثابت الاركان . فظلت الطائفية اساس الاجتماع والسياسة في البلدان العربية . وظلت مسألة الاكثرية والاقلية عقدة من العقد المستعصية ، حتى في مصر حيث كانت السلطة الاحتلالية تقوم بدور الحماية لحقوق الاقليات . ففي سنة ١٩١١ عقد الاقباط في اسبوط مؤتمراً عاماً للمطالبة بامور تتعلق بطائفتهم (٢) وازاء ذلك عقد المسلمون مؤتمراً في عين شمس (٣) . ومن بواعث

(١) آدب القرن التاسع عشر ٢ - ١٦٨ (٢) الهلال ١٩ - ٥٠٦ وكان كاتب هذه
السطور عن اتيح له حضور هذا المؤتمر (٣) الهلال ١٩ - ٥٠٢

الرضى ان جوّ المؤتمرين كان مشبعاً بروح الوئام . الا ان المدقق في البواطن على انعقادها لا يسعه الا ان يرى شبح الطائفية فيها ماثلاً للعيان . وكذلك كان هذا الشبح في سائر الاقطار العربية

فالدستور ارهف الشعور الاخوي بين الطوائف حيناً، وفتح للاحرار باب التهجم على التعصب، حتى ظنّ كثيرون ان اسباب الجفاء الديني قد زالت من الشرق العربي، وان ابناء الشرق، على اختلاف نحلهم، سينعمون في ظل العثمانية الجديدة بعهد جديد تغلب فيه روح الوطنية الحرّة على النعرات الدينية الهدّامة . والحق يقال ان الشعر العربي لم يقصّر في الدعوة لهذا العهد الجديد، ولم يأل جهداً في اثارة النفوس للتخلص من قيود الاوهام وبما ورثته من سخائف القرون المعروفة بقرون الظلام . لكن تلك النعرات على ما يظهر كانت ارسخ من ان تستأصلها الثورات الكلامية، فعادت الى الظهور ولا تزال الى الآن تعمل عملها في حياة الشرق الاجتماعية والسياسية وسنرى انه قد ظهر بعد هبة الدستور هبات اخرى هي ايضاً ارهفت الشعور القومي واهابت بالشرقيين الى الاخاء والوئام . على ان عوامل التفريق لا تزال تعمل في الشرق عملها المعيب، ولا يزال الشرق يرغم الجهود المبذولة بعيداً عن هدفه الوطني المنشود

بعد النشوة الدستورية

حاولنا فيما سبق ان نؤرخ العواطف العربية بوصفنا الاثر الذي أحدثه الدستور الاول وهلة في نفوس العثمانيين ولاسيما ابناء الشرق العربي . وقد رأينا كيف بروز الشعر في مفتتح العهد الدستوري بجلل قشبية من الحماسة سداها الامل ولحمتها الاستبشار . على انه لم يظل كذلك طويلاً . فلم تكدمر سنة على اعلان الدستور حتى رأينا كثيراً من النفثات الشعرية مصطبغة بألوان قائمة من الاشفاق والحذر . ولو تحرّينا الاسباب لوجدناها متباينة الاصول . فمنها نفسي ومنشأه ذلك التراخي الذي يعقب عادة شدة الانفعال او الثوران العصي . خذ الغضب مثلاً فهو يثير النفس ويشعرها موقتاً بشيء من القوة ، لكنه لا يلبث ان يزول ويعقبه « رد فعل » مقنون بالضعف والهبوط . ومثله الاغراق في الجبور او الحزن والامل وما الى ذلك من الظواهر النفسية . وذلك ماحدث في الهبة الدستورية . فقد كان الشعر على اثرها متوتراً شديد الحماسة مثلاً يترنح بخمرة الاعتباط فهزج ورقص وصخب ما شاء . ثم عراه في بعض الاوساط هبوط تدريجي القى عليه مسحة من التشاؤم

ومن اسباب هذا التشاؤم خيبة الامل في النظام الدستوري . كان الناس يرجون من الدستور المستحيل . يرجون منه ان يقلب الاحوال ويغير الطباع وان يهيء لهم فجأة اسباب التقدم والسعادة . على ان النظام وحده غير كاف ، ولا بد من اتحاد الزمن والعلم والاخلاق للوصول الى الغاية المنشودة . وكما ان الشجرة لا تنمو الا اذا تهيات لها اسباب النمو ولا تثمر الا متى حان الاوان ، كذلك كل دستور . وما على القائمين به الا تعهده بمحنة واخلاص ، وتدريب الناس تدريباً منظماً على السير بموجبه والعمل بمقتضياته . ولا شك في ان العثمانيين عموماً لم يكونوا على استعداد كاف للحياة الدستورية . وقد ظهر في تطبيقه نقائص لم يكونوا يتوقعونها بما اثار في النفوس احساسات معكوسة ظهرت في الادب بمظهر الحبة والفشل

واذا عرفنا ذلك عرفنا الدافع الى قول جرجي زيدان بعد زيارته لسوريا ولبنان عام ١٩١٠ مشيراً الى التشاؤم المستحوذ على بعض النفوس . ومحذراً من التادي في

ذلك^(١)» وطائفة تعجّلت استثمار الدستور فهي تريد ان تصير المملكة العثمانية التي قضت قرنين في حال الاحتضار وقد نضبت مآليتها وأجذبت أرضها واطلمت مدنها وتخرّبت طرقها وشوارعها وفسد كل شيء فيها حتى اخلاق اهلهـا واختلّ نظام اجتماعها وفرّق التعصب بين طوائفها ومذاهبها—تريد هذه الفئة من المنتقدين ان تصير هذه المملكة في سنتين مثل ارقى ممالك اوربا وهذا مستحيل»

فقد ادرك زيدان يومئذٍ ما كان يشعر به الناس عموماً من سوء الظن بالحكومة الدستورية وخيبة الامل بما اعلنته من الاصلاح فلم يجارهم في النقد بل رآى التريث والصبر اولى واذن للوصول الى الغرض المقصود . وقد شاركه في ذلك كثير من المفكرين . الا ان بعض الشعراء لم يستطع الصبر على هذه الحال فاندفعوا في سبيل التهمك والانتقاد ، كقول الرصافي من قصيدته شكوى الى الدستور^(٢)

فهل ايها الدستور تسمع شاكياً بك اليوم يرجو ان يرى نهضة الشرق
لقد جئت من افق الصوارم طالعاً علينا طلوع الشمس من منتهى الافق
فصادفت منامة قد تعشقت لقاءك حتى جاوزت مبلغ العشق
وظلنا نرجي منك للخرق راقعاً ولكن تراخي الامر متسع الخرق

وقول الشاعر القروي في البرازيل^(٣)

جاءت فكبرنا وشقّ هتافنا قلب العنان تيمناً بالجاوي
ودعا الفقير لها وسماها أخو البؤس الشديد بأعذب الاسماء
حتى اذا فتر التحمّس وانجلي صبح الحقيقة عن دجى الضواء
نادى فلم يجد النداء ودعا فما لبّاه غير تجاوب الاصدا

ولولي الدين يكن قصيدة موضوعها (الاسترقاق في ايام الحرية) صدر بها احد فصول كتابه الصحائف السود سنة ١٩١٠ . وفيها يقول عن الحرية

تشتاق في عزها ذويها وحصنها دونهم حصين
حتام هذي القيود تبقى يارب قد كلّت المتون

وقد عبر عن عواطف كثير من الناس حين قال على طريقته الشعرية النثرية^(٤)

(١) راجع الهلال ١٩ - ٣٩ (٢) ديوانه (١٩٣١) ٣٢٥ (٣) الرشديات (٤) سان باولو (١٩١٦) ٧١ (٥) راجع كتاب التجارب (١٩١٣) ٢٥ و ٢٦

« قلت حين نبذوا لنا جيفة الدستور : نؤازر هؤلاء القوم القائمين فينا بالامر . ربما اصابوا من حيث لا يشعرون - وكم رمية من غير رام . وقلت اطمئني ايتها القلوب واسكني يا ثائرات النفوس . ووقف اخواني العثمانيون يتفرجون فما راعنا الا مذابح وقتن ، وغارات تتلوها غارات ، وصخب وضجيج ، بينا نواب الامة يتجاذبون اطراف الفوائد كل يريد ان يسمن كبشه » ثم يقول « اخواننا الذين يظلمهم الدستور العثماني لا قبل لهم بمعارضة الحكام وهم معذورون . ثم سفار ارهفت ، وسيوف سلت تقتطف الرقاب كما تقتطف الثمار »

وببلغ به التشاؤم مبلغه في هذين البيتين^(١) مخاطباً رجال الدولة

افلا يزال السوط حاكمكم وأبو السياط بيلدز ذهاباً^(٢)
ونقول أحرار فنمدحكم لا حرّ فيكم . كلنا كذبا

على ان أهم ما يذكر له في هذا الباب قصيدة موضوعها « بين أنقاض الوطن » قالها يصف حال الدولة وما وصلت اليه على يد الدستوريين وهي تنيف على الستين بيتاً^(٣)

حلمنا بشيء وانتبهنا بضده وما يجتني من كاذب الحلم حالم؟
أقيم بناءً بالعراء على شفا ولم تقو أساس له ودعائم
فما ظنّ منه قائماً فهو مائل ومن ظنّ منهم بانياً فهو هادم
وأربعة^(٤) مرت ولم تحل لأمري نهادت على الاقطار وهي سمائم
تعوض يأساً من غدا وهو آمل وشام يقيناً من سري وهو واهم

ومثلها تشاؤماً وسخطاً قصيدة موضوعها « التعصب يخرج الحرية من ديارها » . قالها حين نفى الحكام جميل الزهاوي من بغداد . ومطلعها « اسيرٌ بدار الظلم اعياه أسرهُ » وفيها يندد بالجور والتعصب ويلوم اولي الامر على انتهاك حرمة الدستور . وهي تبلغ ثلاثين بيتاً ويتجلى لك روحها في قوله^(٥)

أحين هوى عبد الحميد بعرشه وغبّره بالذم في الناس غابره

(١) راجع كتاب التجاريب (١٩١٣) ٤٢ (٢) اشارة الى انقضاء العهد الحميدي
(٣) راجعها في التجاريب ١٠٨ (٤) أربعة اعوام مرت على اعلان الدستور
(٥) راجعها في التجاريب ١٩

يقوم اناس يستعيدون عهده وفينا نيازي قائم وعساكره
ألا لانرجي العدل والعدل دوننا موارده محمية ومصادره
تجلى زماناً ثم لم تبسم لنا اوائله حتى استسرت اواخره

فولي الدين ينسب الى الاتحاديين الاستبداد بالامر والضغط على الحريات مما يجعل
الدستور نظاماً أجوف لا خير منه . وقد يقال ان هذا الشاعر عصبي المزاج ميل الى
سوء الظن فيبالغ في نقده سيئات الدستوريين . على انه لم ينفرد بذلك . والذي يراجع
ادب ذلك العهد يجده مشبعاً بالأس والمرارة ، او على الاقل مصطبغاً بصبغة عدم الرضا
كما ترى في مقال لرفيق العظم موضوعه الاحزاب في الامة^(١) ينتقد فيه الاتحاديين
واستثنائهم بالسلطة النيابية فيقول - « ان الاحزاب في البلاد الدستورية كلقواعد
التي يشاد عليها بناء الدستور . ولا يمكن لقاعدة واحدة ان ترفع ذلك البناء . فهل
لاخواننا الاتحاديين ان ينعموا في هذا الامر قليلاً ليعلموا ان القوة لا تبلغ بحزب واحد
يحمل ذلك البناء الثقيل بازاء امة جامدة مثل هذا الجلود الخفيف . فهي في حاجة الى من
يسوقها الى ميدان السياسة ويرشدها الى فضيلة الحكم الدولي ألا وهي الاحزاب فانها
هي التي تتولى تمرين الشعب على ذلك الحكم وتشويقه اليه لتكون يداً واحدة في
الحفاظة على الحرية والدستور » . وهذا الكلام كلام عارف بأحوال البلاد مطلع على
دخائل الامور . نعم ليس فيه لزع ولي الدين ولكن فيه ما يشير الى الاسباب التي
اثارت كوامن نفسه الحساسة . وقريب من هذا المعنى قصيدة لرضا الشيباني يشير فيها الى
خيبة الآمال التي عقدت على الدستور^(٢)

ومن المنتقدين من رأى الخلل في الشعب نفسه لا في القائمين باصلاحه او المتولين
لشؤونه فمن الاجحاف عندهم ان تلقى كل التبعة او معظمها على عاتق الذين احدثوا
الانقلاب وتولوا الاحكام وان يعزى اليهم وحدهم هذا الفشل في تطبيق النظام .
وعلى ذلك يقول الاستاذ الدكتور فيليب حتي من خطبة له موضوعها من الموم^(٣) -
« ما لنا قائمة قيامتنا ابدأ على حكومتنا ورجال الحكم فينا ولا لوم على هؤلاء ولا
تثريب . انما اللوم كل اللوم علينا نحن كامة اذ ان الحكم ليسوا الا بعض افرادها
يوتقون بارتقاها وينحطون بانحطاطها . يقولون الداء اختلاف العناصر والدواء ائتلافها

(٢) ديوانه ١٩٤٠ ص ٦

(١) المورد الصافي ٢ - ٢٤٢

(٣) راجعها في المورد الصافي ٣ - ٢٠٥

وامتزاجها - يقولون الداء « المركزية » والدواء توسيع المأذونية والسلطة الادارية - يقولون ويقولون والواقع غير ما يقولون . الداء الحقيقي هو جهلنا حقائق الامور وانخطاطنا علمياً وأدبياً كأفراد وبالتالي كمجموع ، والدواء التهذيب الحقيقي . وما الضعف القومي سوى عبارة عن مجموع الضعف الافراي . اننا في حاجة الى تهذيب عام يشمل الفتيان والفتيات - حاجتنا الى مبادئ قوية الى آداب حصينة - الى رجال . وتصف لنا الشعور نفسه قصيدة للمؤلف موضوعها « العامة في الشرق » وقد نظمت على اثر بعض الحوادث المؤسفة عام ١٩٠٩ ومنها (١) -

سلانيك ^(٢) حسي الجند عنا وسلمي	عليهم سلام المستهام المتيم
وهبت لنا الدستور منك تكرماً	وما نحن اهل للعطا والتكرم
ضجيجٌ وأوهام هو الشرق كله	فهل من فعول في الشدائد مقدم
يقولون ان الشعب في الشرق حاكم	وربك ما السلطان منه بأظلم
أنيروا أنيروا الجاهلين فاننا	بني الشرق نسري في الظلام الخيم
انيروا انيروا الجاهلين وبشروا	بدستوركم في عالم الشرق ينعم
فما الشعب بالرأي العمومي ناهض	الى ذروات المجد من غير سُلم

وبما زاد الحالة تفاقمًا والنفوس تشاؤماً ما نشأ بعد خمود النائرة الدستورية من مشادات عنصرية بين العرب والأتراك . فبعد تلك الهبة المتفائلة التي نراها في الادب ما بين سنتي ١٩٠٨ - ١٩٠٩ ، والتي كانت تميل الى تعزيز الجامعة العثمانية والتباهي بها أمام الاجانب أخذ التشاؤم يتسرّب الى بعض الاوساط العربية . فتنبّه العرب الى المطالبة بحقوقهم وصاروا يلهبون بقوميتهم ومقامهم في السلطنة وتلك هي الشرارة الاولى من النار التي تأججت بعدئذ في الثورة الحجازية ثم في الحركة القومية العربية بعد الحرب الكبرى وسنفرد بعد هذه الحركة فصلاً خاصة . فلنتقدم الآن الى كلمة في الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ - ١٩١٨) واثرها الادبي

(١) راجعها في المورد الصافي مجلد ١ جزء ٣

(٢) سلانيك كانت يومئذ المركز الرئيسي للانقلاب الدستوري

الحرب العالمية الاولى

وارثها في الادب

والتأمل في الشعر العربي السياسي اثناء هذه الحرب يراه على نوعين - حكومي وعمومي . فالاول مقرون بالسلطة القائمة واعمالها الادارية والسياسية ، وهو أدب كان يوحيه الى الاقلام احد العوامل التالية : -

(١) رهبة تدفع الى المبالاة والتقية

(٢) طمعٌ يبعث على التزلف والمداهنة

(٣) تهوُّس ديني يثير في النفوس التعصّب والحماسة

ولو التفتنا الى سوريا ولبنان وفلسطين والعراق لرأينا ذلك ظاهراً للعيان . فقد دخلت تركيا الحرب الى جانب المانيا فخباً بغتةً ذلك التوتر العنصري وكُمّت الافواه والاقلام الا عن حمد الدولة وتحبّيز سياستها . على ان تركيا لم تكن غافلةً عن النزعات اللاتركية الناشئة في الاقطار العربية وعن تنشيط الحلفاء لها . فكان اول ما عملته بعد دخولها الحرب انها ألغت الامتيازات الاجنبية فأصبحت المسيطرة المطلقة على مقدّرات البلاد ، ثم قسمت الجبهة العربية الى منطقتين حربيتين الاولى منطقة الجيش الرابع ويدخل فيها سوريا ولبنان وفلسطين والحجاز - والثانية منطقة الجيش السادس وهي بلاد ما بين النهرين وأقليم شطّ العرب . وقد رأت ان تنظّم الاولى اولاً وان ترعاها رعاية خاصة فعهدت بها الى احمد جمال باشا الذي عرف الجميع ما جرى على يديه من بطش وارهاب وما قاساه العرب في عهده من شدّة وضيق

فمن الطبيعي في مثل تلك الاحوال ان لا يكون في البلاد العربية العثمانية أدب سياسي حرّ وان تكبت العواطف الحقيقية في اعماق الصدور . واذا أضفت الى ذلك ان الخلافة الاسلامية كان لا يزال لها تأثير عميق في نفوس المتدينين ، وان المآرب الذاتية كانت تعشّش في صدور الكثيرين فلا تستغرب ان ترى الادب العربي يومئذٍ

يلبس اثواب التعصب للسيف التركي او الخلافة التركية . خذ بيروت مثلاً فقد كانت اهم مركز ادبي في الشرق العربي (خارج مصر) ومستنبطاً خصباً للدعابات الاصلاحية . كان فيها عشرات الصحف والمطابع والمعاهد العلمية . والذي يلاحظ ان كثيراً من الصحف العربية كانت قبل دخول تركيا الحرب تجاهر بميلها الى الحلفاء ، فلما دخلت اضطرت اما الى التوقف وإما الى ممالأة السلطة . فلم يبق في تلك المدينة اكثر من ست جرائد . وبالطبع لم تكن اخبارها الا بلاغات تركية المانية ، ولم تكن مقالاتها الا اناشيد مدح لاعمال الدولة العلية . وانه لمن المدهش بل المضحك ان تقابل بين ما كانت تكتبه طائفة من تلك الجرائد خلال الحرب وما كانت تكتبه بعدها ، ولا سيما فيما له علاقة بنهضة العرب ومطالبهم القومية

ومن افضل الامثلة على الادب السياسي الحكومي في تلك الاثناء مجموعة من الخطب والمقالات والقصائد صدرت في بيروت في كتاب خاص بعنوان «البعثة العلمية الى دار الخلافة الاسلامية»^(١) ففي ايلول (سبتمبر) سنة ١٩١٥ نظمت قيادة الجيش الرابع وفداً من اكثر من ٣٠ رجلاً يمثلون سوريا ولبنان وفلسطين وشمال الجزيرة العراقية وارسلتهم الى عاصمة السلطنة للاغراض التالية^(٢)

١ - لعرض اخلاص السوريين وشعورهم على سدة الخلافة الاسلامية

٢ - لمشاهدة عظمة الدولة واستعدادها الحربي

٣ - بث عواطف اهل البلاد الى اخوانهم الغزاة المجاهدين

وبعد ان قضاوا نحو شهرين هناك بين مآدب تكريمية ومشاهد حربية ، وحفلات خطابية ومواقف شعرية عادوا الى اوطانهم يقصّون على الملأ ما شاهدوا وسمعوا وقد دونوا لنا اقوالهم ومشاهداتهم في الكتاب المذكور واليك بعض النماذج منها -

فقرات من خطب القيت في حضرة وزير الداخلية^(٣) - يا صاحب الدولة والفضل :-
« ان الانقلابات التي وقعت منذ نشرتم واخوانكم احرار العثمانيين القانون الاساسي في السلطنة قد عمّت الناس وولاة امورها تعاليم كثيرة . فتعلمنا بالحرب البلقانية والحرب الطرابلسية كيف نجتمع شملنا ونسير في داخلينا وخارجيتنا . حتى اذا نشبت الحرب العامة اثبتنا اننا امة لا تزال حية »

(١) المطبعة العلمية ١٩١٦ (٢) البعثة العلمية ص ٢٥٢

(٣) راجع الكتاب المذكور ص ٦٥ - ٥١

« كان اناس قليلون في ديار الشام يهيمسون في سرهم في اوائل النفي العام بقولهم : ما لنا وللحرب ؟ ان الحياذ ابقى علينا وأسلم لكياننا . ولم تكن الا مدة قليلة حتى عرف الحاص والعام بان الحرب مع دول الاستعمار كانت مقررة لحياتنا السياسية والمالية » كانوا يقولون ان في الحرب خراب البلاد ولكن حربنا الحاضرة والحمد لله قد عمرت بلادنا ومحضت الناس فتيين الخائض المائض من الوطني المخلص ، والحامل من العامل ، والجاهل من العالم . ولو لم توفق الحكومة الى انتداب امثال جمال باشا واخوانه الولاة لسياسة سورية اثناء هذه الازمة لثمَّ فيها المضحك المبكي . ومن الثاني : - « يا صاحب الدولة - ان قدوم هذا الوفد العلمي المنتخب من خيرة علماء الدين الى دار الخلافة الاسلامية الكبرى والامامة العظمى لاداء فروض العبودية وواجب الاخلاص لعرش الخلافة الاسلامية المقدس واهداء سلام الشعب السوري الى الابطال المجاهدين في جناق قلعة وساحات القتال واطهار ما يكنه الشعب من عظيم الشكر لاولئك الابطال الذين دافعوا عن حوزة الخلافة وحياض الدين دفاعاً مجيداً خلّده لهم التاريخ بأحرف من نور ... لهو أنصع برهان على السعي وراء تلك الغاية الشريفة ، وتمكين عرى الرابطة المحمدية والاتحاد الاسلامي ، وتوطيد دعائم الجامعة العثمانية تحت ظلال الهلال المظفر الذي سيحقق ان شاء الله بفضل جهادكم المشكور عن قريب في ربوع قفقاسيا وفوق وادي النيل »

وبما قيل في حضرة ولي عهد السلطنة : - «^(١) بيت عثمان ياذا الايادي البيضاء على هذه الامة انك جمعت شمل المسلمين تحت لواء الهلال المنصور قروناً وستكون كذلك ابد الدهر ، فكيف لا تتأصل محبة اركانك في قلب كل وليد »

وبعد ان يعرض الخطيب للعلاقات المتينة بين العرب والتورك ولفضل العثمانيين في هذه الاخوة المقدسة يقول - « فكنا امام العادين من دول الغرب في كل وقت نحارب معاً ونعود ظافرين ببركة هذه الاخوة ونحن اليوم كذلك في هذه الحرب الحاضرة وسنكون غداً وبعد غد والتوفيق حليف علمنا الذي يظل لنا بفضلكم يا بني عثمان وحفظه بيضة الدين والايمان » . وعلى هذا النسق اكثر الادب السياسي المنشور او كله في ذلك العهد . ولم يختلف عنه الادب المنظوم ، ففي مجموعة « البعثة العلمية » نحو من سبع عشرة قصيدة لبضعة شعراء كعلي الريماوي وعبد الكريم عويضة ، وحسين

الجبّال ، وبدر الدين النعساني وسواهم وكلها ترمي الى نفس الغرض - واليك أمثلة منها . قال أحدهم من قصيدة : - (١)

يا رجالَ الملكِ إنا أمةٌ لا ترى عن آل عثمان بديلٌ
حيّهما يا وفدُ حيّ جندها قاهر الاعداء بالسيف الصقيل
نصرَ الدينَ واعلى شأنه فعدا الاسلام في ظلّ ظليل

ومنها مشيراً الى تراجع اسطول الحلفاء امام قلاع الدردنيل

حيّ قوماً أدهشوا كل الورى بثبات العزم والصبر الجميل
قهروا الاسطول في البحر فما ابجر الاسطول ان عاد ذليل
دافعوا عن حوزة الملك بما يحفظ التاريخ جيلاً بعد جيل
وبنو الشرق الى مصر انبروا « وجمال الدين » للفتح كفيل

وينوّه بذلك الى الجملة التي كان يعدّها جمال باشا لعبور ترعة السويس ودخول مصر وللشيخ الريمائي قصيدة خاطب بها جمال باشا عند عودة الوفد وهي نحو ٤٥ بيتاً وفيها يصف ما رآه الوفد في الاستانة ومقابلتهم لاركان الدولة هناك فيقول (٢)

فجئنا الى دار السعادة والمنى محطّ رجال العزّ والعزّ يُقصدُ
وزرنا عميد الملك يسمو عماده وزرنا وليّ العهد بالفضل يُعهدُ
تحفّ بنا القواد من كل جانب واقطاب دار الملك تحفى وتحفدُ
ومنها - خطبنا لهم جمّاً وقد خطبوا لنا وانشد منا القائلون وانشدوا
جالس كانت كالربيع بواسماً ذكرناك فيها والحقيقة تشهدُ

ومنها - رجعنا وما بالقول شيء ليعرب ولا يعرب ينسى الجميل ويحقدُ
على اننا ابناء دين محمد يحكم هذا الحبّ فينا ويعقدُ

وله قصيدة اخرى مطلعها

تيقظتم حزمًا فأيقظتم الدهرا واعلمتم عزمًا فأدهشتم العسرا

وفيها يقول (٣)

سلامٌ عليكم ما اجلّ فعالكم سلامٌ على الدستور حلوا مذاقه
حماة الهدى والمملك لله دركم ومنها - سعيتم فقرّبتم بني العرب منكم
فكانوا لكم أزرّاً على كل خارج يعدّون هذا الملك فيهم ومنهم
فكنتم نجاد الملك والعرب سيفه وكنتم بين الملك والعرب اليسرى
وأعظم في الايام آياتها الكبرى وان كان بعض الناس قد ذاقه مرّاً
على الحضم قد طبّقتم البرّ والبحرا وقلتم هم الاخوان في الضّرّ والسرّاً
عدوّ وما كانوا وحقّكم وزرا ولا ينقمون الترك سرّاً ولا جهرا
ونختم هذه الامثلة ببعض ابيات من قصيدة لبدر الدين النعساني في احمد جمال باشا.
قال : (١)

لئن أكثر المدّاح فيك القصائد اراهم بما راموه منك حصائدا
ومنها : رمى الله منك الانكليز بصارم صقيل يقدّ الهندواني غامدا
عتوا وأبوا الالقاءك في الوغى ستبقى لهم يوم اللقاء مصايدا
اقاموا على شط القتال معاقلاً بها الصرصر النكباء تشكو الجلامدا
قطعت اليهم بالجيوش مفاوزاً وعزّت جموعٌ كنت فيهنّ رائدا
لقد عزّ جيشٌ كنت فيه رئيسه واعظم آثاراً واكثر حاشدا
فلم أرَ مثل اليوم ارفع همّةً وانجب مولوداً واكرم والدا
واطهر اخلاقاً واصفى سريرةً ونفسي وفكري والقوا في الشواردا
وقفت على عليك فيض يراعتي

هذا هو الادب الحكومي الذي كان ينشر في سوريا والعراق . وهو ولئن لا يجوز
اعتباره وصفاً صادقاً لحوادث ذلك العهد ورجاله فانه بلا شك صورة غير كاذبة لما كانت
تثيره الحالة السياسية في الصدور من رهبة ورغبة او هوَس ديني . واذا عرفنا زمانه
ومكانه واستطعنا ان نقرأ ما بين السطور تجلّي لنا فيه من المشاهد ما قد يساعدنا على
فهم كثير من الحقائق

وما يصدق على سوريا والعراق قد يصدق على مصر ايضاً. الا ان المشهدين يختلفان.
فمصر كانت عاطفتها كما وصفها الدكتور محمد حسين هيكل بقوله (٢) - «تتجه حتى العصور

الاخيرة الى جهتين - تتجه صوب مكة ومكة في بلاد العرب والنبي عربي والقرآن عربي. وهي تتجه او كانت تتجه صوب الاستانة مقر الخلافة الاسلامية والاستانة عاصمة الترك. فكل مسلم تعنيه وحدة المسلمين كان يتجه ببصره - الى حين الغيت الخلافة - نحو مكة والاستانة: يستمد من الاولى المدد الروحي ومن الثانية مدد السيف والمدفع» ومع كل ذلك لم تحرك مصر ساكناً حين اعلن وزير الخارجية البريطاني في ١٨ ديسمبر ١٩١٤ « انه بالنظر الى حالة الحرب التي سببها عمل تركيا قد وضعت بلاد مصر تحت حماية جلالتة واصبحت من الآت فصاعداً من البلاد المشمولة بالحماية البريطانية . وبذلك قد زالت سيادة تركيا على مصر الخ^(١)» وما ذلك الا لان السلطة البريطانية اصبحت يومئذ الكل وفي الكل . وصار المصريون يشعرون انهم انما يعيشون في ظل سيفها المصلت. فلم يكن من الغريب ان نرى الشعراء يتبارون في التقرب من السلطان حسين كامل - كاسماعيل صبري واحمد شوقي وحافظ ابراهيم وولي الدين يكن وسواهم . وهذه قصائدهم فيه تشهد بانقلاب الحال او بالتقية حتى ان حافظاً الوطني الصميم وصاحب المواقف المشهورة قبل الحرب لم يتورع عن ان يقول في الانكليز مخاطباً السلطان^(٢)

فعش للنيل سلطاناً ابياً له في ملكه عقد وحلّ
ووال القوم انهم كرامٌ ميامين النقية اين حلوا
لهم مُلكٌ على التاميز^(٣) اضحت ذراه على المعالي تستهلّ
وليس كقومهم في الغرب قومٌ من الاخلاق قد نهلوا وعلوا
فان صادقتهم صدقوك ودّا وليس لهم اذا قتشت مثل

اما شوقي شاعر الحديو عباس (خصم الانكليز) فقد كانت قصيدته في السلطان حسين كامل « لعبة » فنية حاول فيها الجمع بين وفائه لاميره السابق والواجب عليه للسلطان الجديد وتجنب سخط الانكليز . وقد توفى الى حدّ يذكر له . اذ قال مشيراً الى عباس :

الله يعلم ما كفرتُ صنيعاً في ذا المقام ولا جحدت حميلاً

(١) الهلال ٢٣ - ٣٢٩ راجع أيضاً فيه بلاغات الوكالة البريطانية

(٢) الهلال ٢٣ - ٣٣٧ (٣) نهر لندن

ثم في اعتذاره عن مدح الامير الذي حل محله
 اخون اسماعيل في ابناءه ولقد وُلدت بباب اسماعيل
 ولم يستطع الا ان يقول كلمة في الانكليز فقال :

حلفاؤنا الاحرار الا انهم ارقى الشعوب عواطفاً وميولا
 اعلى من الرومان ذكرآ في الوري واعز سلطاناً وامنع غيلا
 لما خلا وجه البلاد لسيفهم ساروا سماحاً في البلاد عدولا
 واتوا بكابرها^(١) وشيخ ملوكها ملكاً عليها صالحاً مأمولا

على انه لا بد من القول ان الشعر المصري الحكومي برغم اضطواره الى مجارة
 السلطة لم يبلغ في تلك المجارة مبلغ الشعر السوري والعراقي ، بل ظل اكثر تحفظاً
 واقل تطرفاً^(٢) . واذا كان في مصر يومئذ من غارات ادبية عنيفة على الاتراك فنشؤها
 في الاكثر الاوساط اللامصرية تشهد بذلك جرأدهم ونفثات اقلامهم . ولم يكن على
 ما يظهر مبعثها التملق او التعصب بل الاقتناع (خطأ او صواباً) ان الخلاص من
 تركيا سيكون فاتحة عصر جديد يحمل الى الاقطار العربية انوار المجد والسعادة

اما الادب السياسي العمومي (اي ما كان خارج دوائر السلطة) فتشابه في جميع
 الاقطار اذ هو منبعث عن شعور الناس بوطاة الحرب . ومن الطبيعي ان يكون اثره
 في مختلف البيئات بالنسبة الى شدة الوطاة او خفتها ، كما يتضح لنا اذا قابلنا ما
 نظم منه في مصر بما نظم في العراق وسوريا ولاسيا بيروت ولبنان حيث بلغت المحنة
 اشدها . ومن شواهد تلك القصائد التي قيلت في احوال الحرب وفضائعها كقصيدة
 الزهاوي « مشهد من الحرب الكبرى » ومنها^(٣)

في كل ارض وصقع مدافعٌ ثارت
 يقتلن كل فتى قد تفيد منه الحياة
 وليس يبقين الا اراملاً ويتامى

(١) اي بالسلطان حسين كامل (٢) بل كان بعضه جريئاً على السلطة المحتلة . راجع
 قصيدة عبدالمطلب في الحرب العظمى ديوانه ١٥٩ (٣) ديوانه (١٩٣٦) ١١٦

هناك بحرٌ خَضَمَ يجري ليغمر بحرا
هناك بوكان نارٌ تسعى لتأكل اخرى
هناك جيش لهامٌ يؤمّ جيشاً لهما

من قارعات صباحاً يهتزّ منها المكانُ
وبارقات مساءً يحمرّ منها الدخان
وناسفاتٍ بليلى يبعثن موتاً زواما

القتل قتلٌ ذريعٌ والخطب خطبُ جسام
فوق الرغام دماءٌ يحمرّ منها الرغام
والارض تشرب منها ولا تبلى أواما

وكقصيدة أنشدت في بيروت سنة ١٩١٥ موضوعها « متى تضع الحرب اوزارها »
ومنها: (١)

ربوعُ الحضارة امست محطّ النُصور ومنتجع الاضبع
وإنّ ابن آدم شرّ الضواري اذا هاجه هائج المطمع
ففي الحرب سلّ عنه نيوانها وُحمر الدماء على اليرمع
واشلأَ قتلى ابادهم مبيدٌ من السيف والمدفع

ولو اردنا ان نحلّل القصائد التي تضمنت وصفاً للحرب وبلاياها لضاق بنا المقام
ويكثر فيها وصف محن الناس من بؤس وجوع وخوف وتوهم نساء وتيم أطفال
وما الى ذلك مما يدخل اكثره في باب العوامل الاجتماعية . ونحيل القارئ الآن الى
القصائد التالية - وهي حرة بالمراجعة : من ويلات الحرب للرصافي ديوانه (١٩٣١)
٢٢٣- قطع شتى لوديّع عقل ديوانه ٨٨-٩٢- بيروت في الحرب لطانيوس عبده (ديوانه
٤١)- الحرب العظمى لكاظم الدجيلي (الهلال ٢٧-٧٤٨)- المجزرة العظمى لمحمد باقر
الشيبي (المقتطف ٥٠-٥٨٦)- الحرب والمؤاساة لمحمد الهراوي (المقتطف ٥٣-٩١)
- الحرب لعلي الجارم ديوانه ٢-١١٨

النهضة العربية القومية

وأثرها الادبي

﴿توطئة﴾ للعرب في تاريخهم القديم ثلاث نهضات بارزة . الاولى دينية مهددا الحجاز وقد بلغت اوجها بظهور الاسلام وانتشاره في قسم كبير من المعمور . والثانية قومية . وليس بالهين فصلها عن الاولى ، على انها تبرز بشكل خاص في العهد الأموي فيه كان للعرب سلطنة عظيمة الشأن تمتد من حدود الهند الى الاندلس . وكان العرب فيها اهل الادارة والسلطان ، بسيفهم تحاط الدولة والى خزائنهم تجبي الاموال . واما النهضة الثالثة فعلمية لغوية ، وقد بدأت بالنمو منذ ظهور الاسلام وما زالت حتى بلغت عصرها الذهبي في بغداد وبعض الخواضر الاخرى . ويراد بها ما قامت به اللغة العربية يومئذ من نقل العلوم القديمة والتوسع فيها وما عُرف من ازدهار معارفها وآدابها ومن المعلوم ان العرب فقدوا بعد الامويين مقامهم السياسي الممتاز في الشرق واخذوا بعد العصر العباسي الاول بالتراجع امام سائر العناصر . ولم يلبثوا في الشرق عقب انحلال الخلافتين العباسية والفاطمية ، ان دخلوا في حكم الدول الاعجمية وآخر هذه الدول السلطنة العثمانية التي يمتد حكمها عليهم من سنة ١٥١٦ م الى نهاية الحرب العالمية الاولى ١٩١٨

ولا نرى قبل القرن التاسع عشر ما يشير الى يقظة قومية للعرب ، فقد كانت قوميتهم في سبات عميق . واول من حاول ايقاظها على ما يظهر لاجراض سياسية محمد علي الكبير (مؤسس البيت المالك المصري) او قل ابنه ابراهيم باشا ، وكان ينوي انشاء دولة عربية مركزها القاهرة^(١) لكن مشروعه لم يتم . ولا يظهر ان البلدان العربية التي تؤرخ ادبها الحديث (مصر وسوريا والعراق) تأثرت يومئذ تأثراً جدياً بهذا المشروع

(١) راجع ما ذكرناه في مستهل الفصل الاول (مقتطف فبراير الماضي) وكذلك تاريخ الحركة القومية لعبد الرحمن الرافعي (طبع ١٩٣٠) ص ٢٣٣ و ٢٦١

او سعت لتحقيقه ، على ان البذرة وضعت في الارض وترك للزمان إنباتها
بقي الحال كذلك الى الثلث الاخير من القرن التاسع عشر ، وكانت مصر قد
استقلت بشؤونها الداخلية عن الدولة العثمانية ، والنهضة العلمية قد بدأت في سوريا
ولبنان بتنشيط بعض اعلام الحكّام كراشد باشا ومدحت باشا^(١) واضرابهما ، فتهياً
من كل ذلك بواعث لحركة ادبية تعبّر عن احلام العرب وخوارجهم القومية . ومن هذا
القبيل جملة من القصائد والخطب الوطنية التي كان لها اثر يذكر في تخمير الافكار واذكاء
الروح القومية وسند ذكر شيئاً منها بعد

ومن ظواهر تلك اليقظة القومية الاتجاه نحو انشاء جمعيات تطالب بحقوق العرب
في السلطنة العثمانية والحضّ على إنباضهم ، كالجمعية التي تأسست سنة ١٨٨١ باسم « جمعية
حفظ حقوق الملة العربية » وقد نشرت نداءً الى العرب من مسلمين ومسيحيين تحت
عنوان « بياناهم الامة العربية » تدعوهم فيه الى الاتحاد والمطالبة بالحقوق القومية^(٢)
ويبدأ هذا النداء بمخاطبة المسلمين فيلفت نظرهم الى ظلم تركيا ويحتم ذلك بقوله -

« فأين انتم واين هم ؟ من منكم اليوم امير ومن منكم اليوم وزير ومن فيكم
اليوم مدير ؟ بل كل واحد منكم فقير ، وكبيركم مثل صغيركم حقير ، والمال والآمال
بأيدي الترك الخ » ثم يلتفت الى المسيحيين فيقول لهم -

« اتحدوا مع المسلمين واستعدوا لنوال حريتكم من المعتدين فان الترك يخشون
بأسكم فلا يمسسونكم ولا ينتهكون حرمتكم خوفاً من القناصل . فاتحدوا بقلوب مع
اخوانكم المسلمين فان مرجع مصالحكم الى واحد »

ويظهر ان بعض ذوي المصالح او ذوي العطف الانساني من الاتراك كانوا يظهرون
العرب في اتجاههم القومي ، فقد ذكرت جريدة المشير ان جماعة من شبان العرب
والاتراك اجتمعوا في باريس لتأسيس جمعية عربية وغاياتها^(٣)

١ - ان يدافعوا عن حقوق العرب جميعاً مهما تباينت مذاهبهم

٢ - حفظ الامة العربية تحت ظلّ الراية العثمانية في وضع قانون اساسي للخلافة

٣ - ان يساوى بين العرب والترك في كل شيء

٤ - اجراء الاصلاحات الواجبة بالطريقة الواقعة (اي بالفعل)

(١) راشد باشا كان والياً على سوريا سنة ١٨٦٣ - ٦٨ ومدحت بعده بقليل

(٢) جريدة المشير ٢٩ مايو ١٨٩٥ (٣) المشير ١٩ ديسمبر ١٨٩٦

٥ - استقلال كل ولاية من الولايات (العربية) بماليتها وتخصيص ولايتها بوال عربي او معاون عربي . (وهو كالنظام اللامركزي الذي كان يسعى اليه الاصلاحيون قبيل الحرب الكبرى كما سنرى بعد)

ويلوح لنا ان هذه الجمعية هي نفس الجمعية التي يذكرها سيمونسكو في جريدة الجورنال الفرنسية اذ يقول^(١) « في العام ١٨٩٥ بدأت حمى الاسلام بالارتفاع عند ما تأسست في باريس عصبة الوطن العربي وكان لهذه العصبة قاعدتان جوهريتان هما التحرر من الاجانب واتحاد البلدان العربية تحت سلطة موحدة وزمنية »

ولعلّ عصبة الوطن العربي هي الجمعية الوطنية العربية التي يذكرها الاعظمي في كتابه « القضية العربية »^(٢) . وسواء صح ذلك ام لم يصح فالواقع ان العرب اخذوا منذ ايام السلطان عبد العزيز يتنبهون الى حقوقهم ويطالب احرارهم بها ، وقد تركوا لنا من آثارهم الادبية في العهد السابق لدستور ١٩٠٨ ما لا يتروك مجالاً للشك في ذلك بيد ان هذا التنبه لم يبلغ بهم يومئذ مبلغ الرغبة الجدية في الانفصال عن تركيا وجل ما كانوا يطلبونه ان ينالوا حقوقهم في الدولة . وعلى ذلك يقول المقطم سنة ١٨٩٤ بعد ان يذكر النسبة العددية بين العرب والأتراك^(٣) - « ان العرب مظلومون من حيث الادارة والمناصب وان جلالة السلطان لو علم الحقيقة لانصف العرب ونحن لا نشك بحسن نية السلطان ولكننا نشك في ان هذه الحقائق تصل اليه » . وأوضح من هذا القول تصريح خليل غانم ، مبعوث سوريا في المجلس العثماني الاول (ايام مدحت) وأحد مؤسسي جمعية تركيا الفتاة في باريس ، اذ قال^(٤) - « ولا نطلب انفصال العرب عن الأتراك لان ذلك يؤول الى الخراب والاندثار . بل نطلب ونتمنى من صميم الفؤاد انضمام الملتين بل ادغامهما الواحدة بالآخرى بحيث تكونان امة واحدة ، ولكن على شرط المساواة في الحقوق والواجبات »

هذه الروح المسالمة تتجلى في اقوال جمهرة العرب العثمانيين على ان العصبيّة العربية التي رأينا تباشيرها تلوح منذ اصيل القرن الماضي لم تقف دائماً عند حدّ المسالمة بل كثيراً ما كانت تفور في نفوس طبقة من الاصلاحيين ساخطة على الأتراك مهيبة

(١) عن صوت الاحرار (بيروت) ٣٠ سبتمبر (ايلول) ١٩٣٧ (٢) طبع ١٩٣١ ص ٢٨

(٣) المقطم عدد ١٧٢٨ (٤) المشير ٢٥ يناير (ك) ١٨٩٥ (راجع سيرته في تاريخ

الصحافة لطرازي ج ٢)

بالعرب الى استرجاع مجدهم التاريخي ويمثل هذه الطبقة اثنان هما ابراهيم اليازجي (١٨٤٧ - ١٩٠٦) وعبد الرحمن الكواكبي (١٨٤٩ - ١٩٠٢) فلننظر في الدور الذي قام به كل منهما -

﴿اليازجي﴾ ولقد يعجب البعض لزجنا ابراهيم اليازجي في هذا المقام وهو المعروف بالتنقيب اللغوي والبعد عن تيار السياسة . على ان الذي يطالع شعره في ابان شبابه يرى فيه عربياً شديداً النزعة القومية . ودليلنا على ذلك بعض قصائده التي نظمها (وهو في نحو العشرين او بعدها بقليل) فأحدثت في نفوس الناس هزة لا يزال اثرها الى الآن . ومنها ثلاث قصائد أولاها قصيدة انشدها سنة ١٨٦٨ في الجمعية السورية ومطلعها (١) -

سلامٌ ايها العربُ الكرامُ وجاد ربوع قطركم الغمامُ
لقد ذكر الزمان لكم عهداً مضت قدماً فلم يضع الذمامُ

ويتقدم الى وصف مجالس العلم وأربابها ثم يعود الى ذكر العرب فيقول مفاخرأ: -

وما العرب الكرام سوى نصال لها في أجفن العكيا مقامُ
لعمرك نحن مصدر كل فضلٍ وعن آثارتنا أخذ الانامُ
ونحن اولو المآثر من قديم وإن ججحت مآثرنا اللثامُ

ويأخذ من هنا بتعداد اجداد العرب الأول في العراق والشام والحجاز واليمن والاندلس ويختم ذلك بقوله -

ولسنا القانعين بكل هذا وليس لنا بعروته اعتصامُ
ولكننا سنجهد للمعالي الى ان يستقيم لنا قوامُ

والقصيدة الثانية بائية وهي تلتهم حماسه ومطلعها (٢) -

تنهبوا واستفيقوا ايها العربُ فقد طمى السيل حتى غاصت الركبُ
فيم التعلل بالآمال تحذعكم وانتم بين راحات القنا سلبُ

(١) راجع الآداب العربية في القرن التاسع عشر لشيخو ٢ - ٣٧ (٢) راجع نصها في المشير ٣٥ ابريل ١٨٩٦ وفي مجلة الاصلاح (بونس ايرس) ٤ - ٥ وفي القضية العربية للاعظمي ١ - ٩٣ . ولا يذكر المشير اسم ناظمها . وتغزى في سر مملكة ٧٣ الى أحد مشائخ المسلمين . أما سائر المصادر ومنها زبدان في تراجم مشاهير الشرق ٢ - ١١٩ فتتفق على ان صاحبها اليازجي

كم تظلمون ولستم تشكون وكم تستغضبون فلا يبدو لكم غضب
ومنها فشمروا وأنهبوا للامر وابندروا من دهركم فرصة ضمت بها الحقب
لأنتم الفئة الكثوى وكم فئة قليلة تم إذ ضمت لها الغلب
ثم يشير الى الاتراك فيقول : -

سلاحهم في وجوه القوم مكرهم وخير جندهم التدليس والكذب
لا يستقيم لهم عهد اذا عقدوا ولا يصح لهم وعد اذا ضربوا
وتأخذه الحماسة القومية فيصبح :

بالله يا قومنا هبوا لشأنكم فكم تناديكم الاسفار والخطب
ألستم من سطوا في الارض واقتحموا شرقاً وغرباً وعزوا اينما ذهبوا
فما لكم ويحكم أصبحتم هملاً ووجه عزكم بالهون منتقب
لا دولة لكم يشتد أزركم بها ولا ناصر للخطب ينتدب
أقداركم في عيون الترك نازلة وحققكم بين أيدي الترك مغتصب

وكلّهما على هذا النمط من اثاره الحفاظ والعصية الجنسية
أما الثالثة فهي السينية المشهورة . قال سليم سر كيس : « ان الذي تولى نشرها
في دمشق جمعية نظمت ايام مدحت باشا . وقد كان لنشرها رنة في البلاد فارسلت
التلغرافات الى الاسطانة وازداد عدد البوليس السري والقت الحكومة القبض على
كثيرين »^(١) . ولما كانت قد نشرت كاختها البائية غفلاً من التوقيع فقد اختلف في
ناظمها على ان أكثر المصادر^(٢) تعزوها الى اليازجي وهي قصيدة طويلة قد تريد على
الستين بيتاً وهاك بعضها^(٣)

دع مجلس الغيد الاوانس وهوى لواحظها النواعس
ومنها أي النعيم لمن يبيت على بساط الذل جالس
ولمن تراه بائساً ابداً لذيل الترك « بائس »
ولمن ازمته بكف عداه يظلم وهو آيس
ولمن تباع حقوقه ودماءه بيع الحسائس

(١) سر مملكة ٦٧ (٢) ومنها زيدان راجع الحلال ١٧ - ٥٧٤

(٣) راجع انصاف في سر مملكة ٦٤

ولن يرى اوطانه خرباً كاطلال دوارس

وهنا يقف الشاعر على طول البلاد ويعدّ داجادها الغابرة ثم يقول : -

فالترك قوم لا يفوز لديهم الا المشاكس

اولستم العرب الكرام ومن هم الشتم المعاطس

فاستوقدوا لقتالهم ناراً تروّع كل قابس

ويدعو العرب الى الاتحاد مندداً بالشقاق والتعصب الديني ومثيوية في نفوس العامة

ثم يقول :

ساد الفساد بهم فساد الترك فيه بلا معاكس

كم تأملون صلاحهم ولهم فساد الطبع مائس

ويغركم برق المنى جهلاً وليل اليأس دامس

عمت قبائحهم فأضحت لا تحيق بها الفهارس

حالاً بها طاب التبس للوغى والموت عابس

وحلا بها سفك الدماء فسفكها للجور حابس

ولم تكن هذه النفثات الشعرية نسيج وحدها في تلك العهد بل ظهر مثلها كثير في البلاد العثمانية والمهاجر . وكلها تم على تخمير قومي أحدثته الاحوال الجديدة في نفوس الشبيبة لذلك العهد

عبدالرحمن الكواكبي ١٨٤٩ - ١٩٠٢ * كان هذا الاديب الحلبي اصلاحياً حرّاً . وقد اوصلته نزغته الحرة الى السجن . ثم الى هجرة تركيا والطواف في افريقيا وبلاد العرب والهند^(١) . وله كتابان معروفان هما « طبائع الاستبداد » و « ام القرى » والاول دعوة جريئة الى الحرية والتخلص من قيود العادات الاجتماعية المضرة . اما الثاني ، وهو الذي يهنا هنا ، فمن العوامل الفعالة في ايقاظ الشعور القومي بين العرب ، اذ هو يدعو الى خلافة عربية مركزها الجزيرة العربية^(٢) ويسرد لذلك اسباباً كثيرة نذكر منها ما يلي^(٣) -

(١) راجع سيرته في الجزء الاول من تراجم مشاهير الشرق لزيدان - وفي اعلام النبلاء للطباطبائي ج ٧ . ومجلتي المقتطف والمثار (سنة ١٩٠٢) (٢) ام القرى ١٧٢ (٣) ام القرى ١٦٠

- (١) عرب الجزيرة هم مؤسسو الجامعة الاسلامية لظهور الدين فيهم
(٢) عرب الجزيرة اقوى المسلمين عصبية واشدهم انفة لما فيهم من الحصاص البدوية
(٣) لغتهم اغنى لغات المسلمين في المعارف ومصونة بالقرآن الكريم من ان تموت
وهي اللغة العمومية بين كافة المسلمين
(٤) والعرب اعرف الامم في اصول الشورى وفي الشؤون العمومية

وليس من شأننا في هذا المقام ان نشرح نظرياته اثباتاً او تجريحاً وانما نحن نعرضها
تدليلاً على ما كان يمتلج في بعض النفوس يومئذٍ واشارة الى تلك الحوافز القومية التي
تركت اثرها في الادب العربي

وقد اجمع العلماء والادباء على وصفه بمكارم الاخلاق والشغف بالحرية والاصلاح
والجرأة على الجهر بما يراه مفيداً لبلاده . وذهب بعضهم الى نقد عنفه ومراة لهجته
قال الطباخ^(١) « ولعلّ غليان دم الشباب في فؤاده وقتئذٍ ، وتلك النفس المنفورة على
الإباء المتعشقة منذ الطفولة لمحسن الاصلاح المتطلعة اليه تطلع الاسد الى فريسته هي
التي اهابت به ان يطلق لجواد قلبه العنان في هذا الميدان ، وحال حبه الشديد
لاوطانه وشغفه العظيم بانتظام احوال بلاده بينه وبين التطلع الى امامه ، والاتفات
الى ما كان حوله فكبا يراعه ، ولكل جواد كبوة وكان ما كان ، والامور مرهونة
باوقاتهما »

وكيفما كان الامر فان الكواكبي كما قال المقتطف^(٢) « من كبار رجال النهضة
الحديثة في هذه الديار الا ان المحيط لم يساعده والاجل لم يمهل حتى يتم مقاصده
السياسية والدينية . على ان النغمة التي ضرب عليها قد اسمعت بعض الناس . ولو لم يهبط
مصر لكان دفن مع من دفن في تلك البلاد (اي العثمانية) ولم يُعرف عقله ولا فضله »
فالكواكبي ، كما يتبين لنا من اقواله واعماله ومن آراء اهل الثقافة فيه ، عامل
قوي من تلك العوامل التي حرّكت نفوس الناطقين بالعربية وخمّرت قلوبهم بروح
الغيرة العنصرية

ومن الخطأ ان نحصر هذا العمل التخيري في هذين الاديبيين فقد كان مثلهم جماعة
من ذوي الاثر البين في النهضة القومية — منهم اديب اسحق (١٨٥٦ - ١٨٨٥) ولم

يكن اديب من المناوئين للعثمانية، وليس في ادبه ما يشتم منه روح الثورة على نظامهم السياسي . على ان فيه تلك الجرائم القومية المخمّرة التي تغلب على ادب الاحرار لذلك العهد . واذا كان لا يهاجم الحكومة العثمانية كاليازجي والكواكي فهو يجاريها في الدعوة للقومية العربية والكرامة الوطنية . والذي يبرز في ادبه دأبه على تحريك الروح الشرقية وتعزيزها . فهو يناضل عنها في مصر وسوريا، وهو في طليعة المناصرين للحزب الوطني الرافعين للواء الحرية . ومن الطبيعي ان يكون في رسالته الشرقية ما يهيب بمواطنيه الى احترام انفسهم باحترام لغتهم وتاريخهم . ومن أمثلة ذلك قوله من خطاب مشهور موضوعه دولة العرب^(١)

«شعلة سرت من الحجاز فأناثرت الشام والعراقين ومصر والمغرب والهند واتصلت بأطراف الفرنجة فلأمتها نوراً وناراً . فهي بنورها تستضيء ومن نارها تقتبس » وبعد ان يذكر فتوح العرب يقول على طريقته الخطابية : —

« فسارت اسود رجالها على طيور خيولها تطوي الصحارى وتقطع الفدافد ، حتى نطحت بروقي عزمها شرفات الايوان ، ونسرت من الشرق نسر الرومان ، ونشرت على مصر اعلامها وضربت في الاندلس خيامها »

ويأخذ من هنا بمقابلة العرب الأول بعرب اليوم مهيباً مهولاً الى الاتحاد ، داعياً اياهم الى تلافي حالهم قبل فوات الاوان . ويقترح لهذه الغاية اجتماعاً عربياً يتذاكرون فيه شؤونهم ويطالبون بحقوقهم . وكأنه شعر بتشاؤم البعض او حذرهم من مثل هذا الاجتماع فقال منشطاً ومثيراً للهمم

« أيجسبون ذلك الصوت لا يكون له من صدى ، أم يجسبون أن يذهب ذلك الاجتماع سدى . أو لا يعلمون ان مثل هذا الاجتماع منزهاً عن المقاصد الدينية ، منحصرراً في العصبية الجنسية والوطنية ، مؤلفاً من اكثر النحل العربية ، يزلزل الدنيا اضطراباً ويستحيل الدول جذباً وارهاباً ، فتعود للعرب الضالة التي ينشدون والحقوق التي يطلبون »

وليس هذا الكلام اول ما اداه من الرسالة العربية وآخره بل في تضاعيف اقواله كثير مما يوقظ النفوس ويشير النخوة القومية

ومن هذه الطبقة الشيخ يوسف النبهاني ، ونجيب العازوري اللبناني ، وقد اصدر هذا الاخير سنة ١٩٠٥ كتاباً سماه يقظة الامة العربية استحث فيه العرب على استرداد حقوقهم المضمومة^(١) والشاعر المشهور الشيخ نجيب الحداد وهو القائل من قصيدة^(٢) -

آن الاوان لان اخاطر بالدم	من لم يخاطر بالدم لم يسلم
أجزيرة العرب التي احببتها	كم من اكفٍ قد رمتك بأسهم
لعبت أكف الترك فيك فغادروا	في كل قطر فيك نهرآ من دم
قتلوا رجالك واستذلوا من بقي	فبقيت صرعى لليدين وللقم
وغدا العراق مع الحجاز غنية	وبلاد نجد سيّة المتقسّم
فلينقذ الله العلي جنوده	وليحفظ العرب التي لم تأثم

وقد ادرك هذه الطبقة طبقة متأخرة كان لها يد كبيرة في ايقاظ الروح القومية وسيرد ذكرهم في غير هذا المقام

بمثل هؤلاء الرواد القوميين من كتبة وشعراء اخذت النفسية العربية تستيقظ من سباتها العميق . فلم يكد فجر القرن العشرين ينبثق حتى كانت العاطفة القومية قد اخذت تحرك القلوب والاقلام . وكان لها في الادب اتجاهات ظاهرة اظهرها تلك المفارقة بالاجاد السالفة . وتلك الغيرة الملتبهة على اللغة الوطنية والتشكي من اهلها . كقصيدة حافظ ابراهيم « رجعتُ لنفسي فاتهمت حصاتي » . ومنها ما جاء على لسان اللغة شاكية مما ألم بها -

انا البحر في احشائه الدر كامنٌ	فهل ساء كوا الغواص عن صدفاتي
ارى لرجال الغرب عزّاً ومنعةً	وكم عزّ اقوام بعزّ لغات
سقى الله في بطن الجزيرة اعظماً	يعز عليها ان تلين قناتي
حفظن ودادي في البلى وحفظتهُ	لهنّ بقلبٍ دائم الحشرات
وفاخرت اهل الغرب والشرق مطرق	حياءً بتلك الاعظم النخرات
ارى كل يوم بالجرائد مزلقاً	من القبر يدنيني بغير اناة

(١) القضية العربية للاعظمي ١ - ٢٨ (٢) اوردها الاعظمي في كتابه ١ - ٢٣ ولم نجد في ديوانه ولعلها من جملة ما كان ضائعاً من آثاره يوم نشر الديوان . وله مقالة في استنهاض الشرق تجدها في الحلال ٣٠ - ٢٢٠

ايحجري قومي عفا الله عنهمُ الى لغة لم تتصل برواة
سرت لوثة الأعجام فيها كما سرى لعاب الافاعي في مسيل فزات
والقصيدة كلها على هذا المنوال من تعظيم العربية وذمّ المعارضين عنها الراغبين في
اللغات الافرنجية^(١)

ومثلها قصيدة لمصطفى صادق الرافعي موضوعها اللغة العربية والشرق وفيها يقول^(٢)

أمّ يكيد لها من نسلها العقبُ ولا نقيصة الا ما جنى النسبُ
كانت لهم سبباً في كل مكرمةٍ وهم لنكتبها من دهرها سببُ
ومنها في تقلّب الايام على هذه اللغة :

أقى عليها طوال الدهر ناصعة كطلعة الشمس لم تعلق بها الرّيبُ
ثمّ استفاضت دياجٍ في جوانبها كالبدرد قد طمست من نوره السّحبُ
ثمّ استضاءت فقالوا الفجر يعقبه صبحٌ فكان ولكن فجرها كذبُ
ثمّ اختفت وعلينا الشمس شاهدةٌ كأنها لعنة في الجوّ تلتهبُ
كان الزمان لنا واللّسن جامعة فقد غدونا له والامر ينقلبُ

ثم يلتفت الى طلاب الادب الاجنبي فيقول مؤنباً

انترك الغرب يلهونا بزخرفه ومشرق الشمس يبكيها وينتخبُ
وعندنا نهرٌ عذبٌ لشاربه فكيف نتركه في البحر ينسربُ
فهل نضيّع ما ابقى الزمان لنا وننفذ الكفّ لا مجدّ ولا حسبُ
إنا اذن سبّة في الشرق فاضحة والشرق منّا وان كتب به خربُ

ويختم القصيدة بنشوة فخر فيقول

إذا اللغات ازدهت يوماً فقد ضمنت للعرب ايّ فخار بينها الكتبُ
وفي المعادن ما تمضي برونقه يدُ الصّدا غير ان لا يصدّ الذهبُ

وامثال هاتين القصيدتين كثيره في الادب العربي^(٣) ومصدرها كما ذكرنا غيره

(١) ديوانه (١٩٣٧) ج ١ ص ٢٥٣ (٢) ديوانه ٢ - ١

(٣) راجع منها قصيدة محمد الهاشمي في المورد الصافي ٧ - ٤٨

لغوية نشأت على أثر اليقظة القومية في النصف الاخير من القرن الماضي ولا تزال الى الآن . وتقوتون بالغيرة على اللغة ما نظم في ابطال العرب الاقدمين ووقائعهم احياء لسالف المجد وانهاضاً لمآث المهم . كقول الرصافي من قصيدة مقابلاً بين العرب اليوم والعرب قديماً

لهفي على العرب امست من جمودهم حتى الجمادات تشكو وهي في ضجر
اين الجحاحج بمن ينتمون الى ذؤابة الشرف الوصاح من مضر
قوم هم الشمس كانوا والورى قمر ولا كرامة لولا الشمس والقمر
راحوا وقد أعقبوا من بعدهم عقباً ناموا عن الامر تفويضاً الى القدر

وقد اتصلت هذه الروح بالجمعيات الادبية في المعاهد العلمية وخارجها فالتهمت بها نفوس الناشئة وأخذوا في بدء القرن الحالي يتغنون بالاناشيد الحماسية . وهاك مثلاً منها نظم ١٩٠٦ في بيروت لاحدى الجمعيات العربية : -

لغة العرب اذكرينا واذكري ما فات
كيف ننساك وفيينا نفحة الحياة

يا بني الشام ومصرِ وبني العراق
هل نسيتم ذكر عصر طبّاق الآفاق

كنتم فيما تمضى بهجة الازمان
فلماذا اليوم نرضى حالة الهوان

ولشيوع هذه الغيرة اللغوية والتاريخية واتقادها في الادب يومئذ اسباب شتى منها - (١) اطراد الانتظام السياسي بمصر وظهورها بمظهر دولة عربية متقدمة (٢) اطراد التقدم العلمي والصحافي في الاقطار السورية والعراقية (٣) ان الاتراك برغم تشديدهم النكير على طلابّ الاصلاح كانوا لا يزالون يعتبرون العربية لغة الدين والثقافة الشرقية القديمة ويعدون انفسهم من حمايتها ومناصريها فلم يظهر منهم في ذلك العهد ما يوجب المتحمسين لها او يثبط عزائمهم

على ان من الانصاف التاريخي ان نعيد هنا القول ان هذا العمل التخيري الذي سرى في الاوساط الادبية قبل ١٩٠٨ لم يبلغ درجة النضج ولم يصل الى نفوس السواد من الامة . فكانت العواطف العمومية لا تزال غير منضّمة . وكان الادب العربي بين هذه الروح القومية الآخذة في الاستيقاظ ، وما آلفه من الجامعة العثمانية المرتبطة بالخلافة ، حيوان لا يدري كيف يسير . فهو من جهة قومي ومن جهة عثماني-تارة يتغنى باجماد العرب ، وطوراً يتغنى باجماد العرش العثماني . وما زال في هذا الموقف الغريب حتى فوجيء بالدستور فذهبت حيرته ومرت عليه مدة كانت العثمانية الحرة فيها غايته المنشودة^(١)



(١) وقد بسطنا ذلك في كلامنا على « الشملة الدستورية »

الحركات العربية

النظرة وأثرها العربي

ذكرنا انه في الثلث الاخير من القرن الماضي ظهر في سوريا والعراق صيحات ادبية تهيب بأبناء العربية في السلطنة العثمانية ان يهتوا من رقادهم ويسعوا لاعلاء شأنهم . وقد كان لتلك الصيحات اثر يذكر في تنبيه الشعور ونفض غبار الخمول الذي تراكم عليه قروناً عديدة . على ان الامم العربية لم تكن قد وصلت في حياتها الاجتماعية والسياسية الى درجة التعاون المنظم . فلم تتجاوز تلك الصيحات حدّ اثاره الشعور ، بل لم يكن لها اثر بين الا في حلقات خاصة من اهل الثقافة . وظلّ الامر كذلك حتى أعلن دستور ١٩٠٨ فغمر البلاد العربية بموجة من الاخلاص والحماسة للوطنية العثمانية . لكن تلك الموجة لم تلبث كما بسطانا في غير هذا المقام ان تراجعت وضعف أثرها في النفوس وقد دلّت العرب التجارب على ان القانون النظري شيء وتنفيذه شيء آخر ولعلمهم ذكروا يومئذٍ خط كلخانة الذي اصدره السلطان عبدالمجيد سنة ١٨٣٩ ثم الفرمانات والعهود الصادرة بعد ذلك كفرمان ١٨٥٦ ، وفرمان ١٨٧٤ ، والمادة التاسعة من معاهدة باريس ، ودستور مدحت سنة ١٨٧٦ . وفي كلها كانت تركيا تعترف قانونياً بالتساوي بين جميع الاجناس والاديان في السلطنة . على ان ذلك التساوي لم يتم فعلياً

فلما ذهب النشوة الدستورية الجديدة فتح العرب عيونهم فاذا هم والاتراك وجهاً لوجه ، واذا بينهم اختلاف مريب يثير الشكوك بنيات الاتحاديين - وهم حماة الدستور ومنفذو احكامه . فتملكهم التشاؤم ورأوا ان العهد الجديد لا يختلف عما سبقه ، وانه لا بدّ لهم من العمل . وكانوا في مطلع القرن العشرين وقد خطوا خطوات واسعة في سبيل الرقي ، وتهيأ لهم من اسباب النهضة ما لم يتهيأ من قبل ، فأخذ السياسيون منهم ينظمون الجمعيات والدعائيات توصلا الى نيل حقوقهم وصدّاً للتيار التركي من الطفغان عليهم

وغير نكير ان موقف الاتحاديين من الدستور لم يكن سهلاً . فهم الذين أعلنوه ، وهم الذين كان عليهم ان يجموه ويطبّقوه . فلم يكن غريباً ان يحرصوا معظم السلطة في ايديهم وان يكون جلّ تعويلهم على العنصر التركي

وبذلك فتحوا باباً لتدمير غير الاتراك . وسرعان ما احدث هذا التدمير تعكيراً في صفوف الدستوريين من ملكيين وعسكريين ، فبدرت بين العناصر المختلفة ، كما راينا ، بوادر سوء الظن . ولم يكن بين الشبيبة المتحمسة من يتلافى الامر بالتالي هي احسن ، فكان ما كان من تلك المشادة العنصرية التي فرقت قلوب العرب عن الترك وحولت انظارهم الى العصبية القومية

وطبعاً لم يكن عقلاء الطرفين راضين عن هذه الحالة التي اقلّ ما يقال فيها انها توهن قوى الدستوريين وتخرج مركزهم . فقام مفكّرهم يدعون الى التساهل وإزالة سوء التفاهم . ومنهم الدكتور رضا توفيق^(١) . فقد صرّح سنة ١٩١٠ محرّر جريدة (بروجره دي سلانيك) بقوله -^(٢) « انا على اتفاق تام مع الجمعية على ان البلاد في حاجة الى حكومة قوية ، ولكنني اخالفها في استخدام القوة . واذا كان وجودي في المجلس قد قضى عليّ بان احمل على طلعت بك الممثل الاكبر للجمعية في الوزارة وصديقي ورفيقي منذ الساعة الاولى في جمعية الاتحاد والترقي فذلك لاعتقادي بان الواجب عليّ ان افعل ما فعلت . ولو سكت كغيري لكان ذلك خيانة لا يغفرها الوطن لي . ان الدستور لا يكون الا كلمة لا معنى لها اذا لم تحترم الحرية السياسية والحقوق الاساسية وحرية القول والكتابة والخطابة ، واذا لم تعامل العناصر كلها معاملة واحدة بمقتضى احكام الدستور »

ففي كلام هذا التركي الحرّ ما يشير الى سياسة الاتحاديين التي حملت العرب يومئذ على التبرم وسوء الظن

وكما كان بين مفكري الاتراك متساهلون يدعون الى الوئام كذلك كان بين مفكري العرب فقد ذكرت جريدة الاهرام ان جمهوراً من العثمانيين في مصر اجتمعوا سنة ١٩١٠ لوداع سليمان البستاني نائب بيروت . فجرى في ذلك الاجتماع من الكلام ما يشفّ عما كان بين العنصرين التركي والعربي من توتر في العلاقات . وها نحن ننقل بعضه بتصرف عن مجلة النبراس البيروتية -^(٣) قال رفيق بك العظم « ان العرب

(١) هو عالم تركي كبير وكان من صميم الاتحاديين

(٢) ثورة العرب (المقتطم ١٩١٦) ص ٥١ (٣) مج ٢ ص ٣٣٣

مهضومة حقوقهم ولغتهم ممتحنة مضطهدة . وهو يعزرو هذا لا الى الامة التركية فهي صديقة للعرب ولكن الى بعض ذوي المناصب في الاستانة . ثم يقول متحمساً . « فالواجب ان يفهموا اننا لا نصبر على هذا الضيم لانهُ يهيننا ان تحيا الدولة . إن الترك بلا العرب تزول دولتهم ، والعرب بلا الترك يؤكلون ويهضمون ، فحياة الدولة تهمننا وتهممهم على حدٍ سواء »

ومن تكلموا في ذلك الاجتماع الدكتور يعقوب صرّوف فقال « ان معتقدي كان كمعتقد أحناء رفيق بك حتى قابلت اليوم العلامة البستاني ففهمت منه الحقائق ، وانا واثق انه لم ينقل اليّ غير الحق . فاذا كان العرب قد حرموا الوظائف فلأنهم لم يسيروا في سلك التوظيف . وان كان قد بدر من بعض كتاب الاتراك ما آلم العرب فذلك ليس رأي القابضين على أزمة الامور « بل ان رأيهم عكس ذلك تماماً » ... الى ان يقول . « فالواجب ان نعاونهم بالنصيحة ونحو سوء التفاهم ونساعدهم على ادماج جميع العناصر والطوائف حتى تصح الجامعة العثمانية » .

واخذ السيد رشيد رضا يثبت ان هناك سوء تفاهم بين العرب والترك لا يجوز انكاره ، على انه كان يحاول ان يحصره في فئة معينة . ومما قاله « لانكران ان بعض ذوي الاغراض في الاستانة هم سبب هذا الشر »

أما البستاني فكان ينزع منزوع السياسي العثماني الصميم . وقد شرع يبين ان هذه المشادة مبنية على الاوهام ، وان الدولة مفتوحة للعرب كما هي للترك . وفي كلامه - « أقول لكم عن ثقة وعن يقين ان قولهم ان بين رجال الحكومة من الاتراك قوماً يكرهون العرب او يضطهدونهم وهم باطل اختلقه بعض اصحاب الاغراض والمفاسد . فالاتراك عموماً ورجال الحكومة منهم خصوصاً يحبون العرب ويحلوهم ويعتمدون عليهم في تأييد الدولة . ولا يضطدون اللغة العربية بل هم على عكس ذلك يؤيدونها »

فيؤخذ مما ورد في هذا الاجتماع الذي كان يضم نخبة من مفكري العرب ان العرب كانوا يتهمون الاتراك بهضم حقوقهم والاستبداد بالامر دونهم واضطهاد لغتهم . وقد تناول جرجي زيدان ذلك في مجلة الهلال فنشر مقالاً موضوعه العرب والترك حاول فيه الاعتذار عن الاتحاديين وحمل العرب على التؤدة وحسن الظن . ومما جاء فيه (١) - « لا ننكر استخدام جمعية الترقى نفوذها في الانتخابات حتى جعلت الاكثية من

حزبها ، وانها تلكأت في اسناد الوظائف الكبرى الى العرب . ولكننا لا نحمل ذلك على رغبته في الاستئثار بالسيادة دون العرب او غيرهم ، ولكن فعلت ذلك على ما نظن رغبة في سلامة الدولة ، وصيانة الدستور الذي نالته بعد شق الانفس من ان تعث به الايدي اذا تولاه غير اهله » ولشدة رغبة زيدان في المسالمة وعطفه على القائمين بأمر الدستور اخذ يلوم بعض مواطنيه على وقوفهم موقف العداء من اخوانهم الاتراك فيقول - « لما اعلن الدستور وجاهر الاتراك انهم يتنازلون عن جنسيتهم وامتيازاتهم رغبة في الوفاق ما كان من العرب الا السعي في تأييد الجامعة العربية . فألفوا جمعية التآخي العربي بالاستانة وأنشأوا الصحف للدفاع عن العرب والتنديد بالاتراك والتفاخر بمجد العرب ودول العرب وعلوم العرب »

وفي كلام زيدان شيء من الحقيقة لا الحقيقة كلها ، فان الذي يراجع تاريخ هذه الحركة يرى كما بينا مراراً ان العرب لم يكونوا عند اعلان الدستور اقلّ غيرة من الاتراك على الجامعة وان تبة الشقاق الذي نجم بعدئذ واقعة على الطرفين ولا سيما على الاتراك . فزيدان نفسه يصرح باستئثارهم بالمناصب ولكنه يأخذ بحسن الظن وروح التفاؤل ولا ينتظر من كل واحد ان تكون له تلك الروح فيغضي عما كانت يراه من استبداد جنسي

وقد عقد رشيد رضا في مجلة المنار مقالاً إضافياً^(١) تناول فيه ما كان من سوء تفاهم بين العنصرين ففصل اسبابه وشرح كلياته وجزئياته ثم قال متحفظاً « لا اقول ان كل ما روي من ذلك صحيح المتن والسند . ولا اقول ان ما صح منها كان بسوء النية وتعمد هضم حقوق العرب . ولكنني لا استطيع ان انكر قول من يقول انها في مجموعها تفيد التواتر المعنوي الدال على انه يوجد في رجال الدولة ورجال الصحافة التركية أناس يسيئون الظن بالعرب ولا يعطونهم حقوقهم ولا يعرفون قيمة اتحادهم بالترك واتحاد الترك بهم »

وسواء كان الاتراك المومنين او كان العرب فالذي يهنا هنا ان ذلك النفور العنصري يومئذ حقيقة لا مراة فيها وانه قد شغل الافكار والاقلام زمناً غير يسير ، وقد أصاب رشيد رضا اذ قال في المقال السابق الذكر « هذا ما كانت عليه البلاد في العام الماضي (١٩٠٩) . وكانت قد نجمت قرون الخلاف ولكن لم يشعر بها الجمهور فلما كثرت وكبرت تنكّر الناس في سورية ومصر وخاضت في المسألة الجرائد العربية

حتى في اميركا ، وتبارت فيها قرائع الشعراء ، وتجاوبت فيها الاصوات حتى عمت البلاد والجهات . فاهتزت بذلك النعرة العربية اهتزازاً شديداً

ومن دلائل هذا الاهتزاز انه في الجلسة التي عقدتها اللجنة المركزية لجمعية الاتحاد والترقي سنة ١٩١٠ قام عضو عربي منها هو عمر منصور باشا مبعوث طرابلس الغرب والقي خطاباً بالغاً منتهى الجرأة ، وفيه يحمل على الاتراك ويعزو اليهم سبب الخلاف الناشب بينهم وبين العرب فيقول متألماً^(١) - « لماذا لا تتعدون على حقوق الارمن والروم والبلغار العثمانيين . اتعرفون لماذا ؟ لان عند الارمن قنابل ، وللروم اليونان وللبلغار بلغاريا . اما نحن فلا يشد ازرنا احد ولكن ثقوا ان لنا الله ورسوله . اذا قال لكم مبعوث عربي ان ابناء العرب يمتنون منكم فلا تثقوا بهذا القول ولا تصدقوه . اقول لكم هذا على مسمع منكم جميعاً »

ولم يكن اندفاع هذا النائب الجريء في عاصمة الاتراك ومركز قوتهم الا لما كان يراه او يسمعه من اقوال غلاتهم خطأ من كرامة العربية وابنائها . ويكفي ان نذكر من ذلك على سبيل المثال كتاب « قوم جديد » لكتاب تركي اسمه عبيد الله . فقد ذهب في الغلو كل مذهب حتى طلب من الاتراك ان ينزعوا اسماء كبار العرب من الصحابة والتابعين عن قباب المساجد ويضعوا محلها اسماء عظام الترك^(٢)

ومن اقوال غلاتهم قول احدهم^(٣) - « ما هي العثمانية ؟ ولماذا لا نقول التركية . ان الحقيقة تغلب الخيال ، ومن المحال العقلي ان تظل هذه الشعوب المتباينة مرتبطة بعضها ببعض وراء ستار وهمي . وتحت اسم بال خلق . يجب علينا ما دام في استطاعتنا الحياة ان نعد الى الجيش والاسطول والعلوم والآداب والشرائع والقوانين وكل شيء فنصبغه بالصبغة التركية المحضة »

وقد طلب احمد جودت محرر جريدة اقدم ان تنتقح اللغة التركية من الكلمات العربية . وعلى وتره ووتر اضرابه من الغلاة كان يضرب جماعة من أولي الامر ومثوري شعور الجمهور وقد تغلبت اصواتهم على أصوات المعتدلين ، وهذا ما دفع العرب الى مقابلتهم بالمثل والكيل لهم بنفس الكيال .

والظاهر ان العرب أحسوا بهذا التنكر منذ أوائل العهد الدستوري فعمدوا الى

(١) جريدة البرق (بيروت) سنة ٣ عدد ١٢٢ (٢) القضية العربية (الاعظمي) ١ - ١٠١

(٣) القضية العربية ١ - ٩٥

توحيد دفاعهم بتأليف الجمعيات السياسية وهاك أهمها^(١) : -
المنتدى العربي سنة ١٩٠٩ - أسس في الاستانة على ان يكون مثابة للشبان العرب في تلك العاصمة

جمعية الفتاة (الاستانة) - وهي للعرب بمنزلة الاتحاد والترقي للترك
الجمعية القحطانية ١٩٠٩ (مصر) - جمعية سرية غايتها بث المبادئ الصحيحة بين
ابناء الامة العربية وتوحيد صفوفها

الجامعة العربية ١٩١٠ (مصر) غايتها السعي لاتحاد حلقي بين أمراء الجزيرة العربية
ثم التعاون على عمران البلاد والدفاع عنها وإنشاء صلة بين الجمعيات العربية في سورية
والعراق وغيرها

حزب اللامر كزية ١٩١٢ (مصر) غايته تبيان محسنات الادارة اللامر كزية في
السلطنة العثمانية

الجمعية الاصلاحية ١٩١٢ (بيروت) وهي اشبه بفرع من حزب اللامر كزية
وينحصر عملها في تنفيذ الاصلاح اللامر كزي في ولاية بيروت

جمعية العهد ١٩١٣ (الاستانة) وهي تضم نخبة من ضباط العرب في الجيش وغايتها
السعي للاستقلال الداخلي لبلاد العرب ، على ان تظل متحدة مع حكومة الاستانة
اتحاد المجر مع النمسا (قبل الحرب)

على ان اول جمعية عربية نشأت في ذلك العهد هي جمعية الاخاء العربي . تأسست
في الاستانة سنة ١٩٠٨ . ومن غاياتها جمع كلمة الملل العثمانية المختلفة والسعي لاعلاء
شأن الامة العربية وصيانة حقوق ابناء العرب وتأيد الحرية والعدل والمساواة بين
عناصر الامة العثمانية وإزالة الضغائن وسوء التفاهم من بينهم « الخ الخ
وكان التجانس مفقوداً بين اعضائها فلم تعش طويلاً .

ولا ننسى في هذا المقام المؤتمر العربي العام الذي عُقد في باريس (١٩١٣) وضم
وفوداً من اكثر الاقطار والمهاجر العربية . وكانت غايته مصارحة الدولة العثمانية
بتطبيق نظام اللامر كزية في بلاد العرب مع المحافظة على الرابطة العثمانية

فالجو العربي الادبي كان في ذلك العهد مشبعاً بالاماني والحركات القومية وملائماً كل الملائمة لانتشار الدعايات ضد حكومة الاستانة . وقد كانت تلك الدعايات تنبعث عن مصدرين مختلفي الغرض هما - (١) الجمعيات العربية (٢) الايادي الاستعمارية . فالاولى لم تكن غايتها على ما يستدل من نظمها وتصريحات رجالها الا خدمة القضية العربية باعتبارها مسألة من مسائل السلطنة العثمانية الداخلية . وذلك ما يعنيه رشيد رضا بقوله عن النهضة العربية وتوجهها الى الاصلاح الديني والاجتماعي والمدني (١) - « وهي جديرة بذلك بدليل اتفاقها في سورية والعراق والجزيرة على بناء هذا الاصلاح على اساس اللامركزية الادارية اذ بذلك تحفظ حقوق الدولة العثمانية ويتمكن الارتباط بها ، وبه يعطى كل قطر حقه بحسب استعداده ومذاهب اهله » بل ذلك ما كان يعنيه اولو الامر في كل جمعية سياسية

اما الثانية (الايادي الاستعمارية) فلها غرض آخر - كانت ترمي الى تفكيك عرى الدولة العثمانية وفصل الاقطار العربية لاغراض استعمارية . ولا نشك انها سعت في تنشيط الجمعيات وحمايتها اذ رأت فيها او في بعضها ما قد يوصلها الى هدفها المنشود ولا نستطيع ان ننثبت هنا المدى الذي بلغته علاقات اوربا بالجمعيات العربية ، بل لا ندري هل حصل قبل الحرب الكبرى تفاهم بين الاستعمار ودعاة القومية . فان هؤلاء كانوا متمسكين بصلاتهم العثمانية يتجنبون الوقوع في احابيل الاستعمار . على اننا ندري ان اوربا كانت تمدّ يداً حريرية الملمس الى طلاب الاصلاح ، وان النفسية العربية كانت في العهد الدستوري (ما بين ١٩٠٩ - ١٩١٤) ظاهرة الاضطراب بدليل ما نراه من نفثاتها الشعرية المعبوءة عن خواجها والمطالبة بتحقيق امانيتها . ومن أمثلة ذلك قصيدة للشیخ سليمان التاجي الفاروقي (فلسطين) تريد على السبعين بيتاً يخاطب فيها السلطان ويلتمس منه النظر في حقوق العرب . وهاك بعضاً منها - :

العربُ لا شقیتْ في عهدك العربُ سیوف ملکک والاقلام والکتبُ
همُ الجبال فما حملتهم حملوا لکن اذا سمّتهم ضم النفوس أبوا
ومنها مشيراً الى خيبة آمال العرب
کنا نعللُ بالدستور أنفسنا بفارغ الصبر ذاک الیوم نرتقبُ

حتى اذا جاء لم يحدث لنا حدثاً ولا استجيب لنا في مطلب طلب
وله قصيدة أخرى قيلت استفزازاً لنواب العرب . وقد نشرت في جريدة المفيد
« بلسان الامة العربية تخاطب أبناءها » بتوقيع بدوي فلسطين . ومطلعها
يؤمن نواصيكم عقدت الامانيا ورجيت ان أعلو لكم من علانيا
ومنها : بني انهضوا واحيوا حياة عزيزة حياة تعيد المجد للعرب ثانيا
وبعد ان يحدثنا عن أمجاد العرب يلتفت ثانية الى النواب فيقول : -
ألا نهضة شرقية عربية تزلزل أقواماً وتوهي رواسيا
وتقضي على كل امتياز واثرة ويصبح كل الناس فيها سواسيا
الارجلا ذا مرة فيلمكم ويرأب صدعاً فيكم بات واهيا
يقوم فلا يرتد او يبلغ المنى ويقضي ولكن بيعث السيف قاضيا
وللفاروقي كثير من مثل هذه النفتات القومية . على انها مبعثرة في الجرائد اليومية
السورية والمصرية . ولم نقف له على مجموعة خاصة (١)

وأشد من أقواله وأعنف نفتات عبد الحميد الرافعي (طرابلس) وقد كان قبل
الدستور من مريدي أبي الهدى الصيادي شيخ السلطان عبد الحميد . فلما حدث الانقلاب
وحدثت على اثره تلك المشادة العنصرية ثار ثأره على الاتحاديين ، فنظم عدة قصائد
نارية مظهراً فيها فسادهم ومهباً بالعرب الى النهوض والتقدم ومنها قصيدة مطلعها (٢)

ما تصلح الدنيا ولا ناسها ما لم يل الاقوام أجناسها
ومنها : دارك أمير العرب جرثومة للعرب قد ادركها ياسها
تجاوز الترك على حقها والترك قوم ضاع إحساسها
ومنها : هوابني العرب إلام الكرى وقد دها الآمال دهاسها
طلبتم الإصلاح من عصبة توترت بالافساد اقواسها
فكم تقيمون على ذلة وروضة الصبر ذوى آسها
ألستم نسل القروم الألى تتنعل الهامات افراسها
فجردوا العزم الذي طالما شق صدوراً طال وسواسها

(١) ما نشرناه للفاروقي أعلاه هو من بعض ما تكرم بارساله الينا المرحوم ابراهيم طوقان
الاديب الفلسطيني المعروف (٢) راجعها في ذكرى يوبيله ص ٨٨١

ويجري في ذلك ثم يقول مشيراً الى الدولة العثمانية وعواطف المسلمين قبل انحوارها:-
 كُتِّبَ نَرَى طَاعَتَهَا عَصَرَ مَا كَانَتْ تَلِي الْأَحْكَامَ أَفْدَاسُهَا
 أما اليوم فقد تغيرت الحال عنده وها هي تقف من العرب موقف العداء ومن
 الدين ولغة القرآن موقف الرياء -

تَحْسَبُ أَنَّ الْعَرَبَ أَعْدَاؤُهَا وَهَمْ مَدَى الْأَيَّامِ حَرَّاسُهَا
 عَوْنٌ عَلَى السَّلْمِ وَأَنْ حَارِبَتْ فَهَمْ مَوَاضِيهَا وَأَتْرَاسُهَا
 تَزْعُمُ حُبَّ الدِّينِ لَكِنْ كَمَا يَرُوجُّ السِّلْعَةَ دَلَّاسُهَا
 لَوْ تَأَلَّفَ الْقُرْآنُ مَا حَارِبَتْ لِسَانَهُ حَتَّى التَّوَيَّ فَاسُهَا

وهكذا ينحني بالذع الأليم على أولي السلطة من الاتحاديين فينعتهم بالكفر
 والتخلف والسفالة والظلم ، ويطلب من العرب الاتحاد والتضامن دفعاً لعادية هؤلاء
 القوم المارقين الذين لشدة ظلمهم دفعوا البلاد الى هوة الحراب

مَنْ عَظُمَ مَا جَارَتْ بِأَخَانَتِنَا أَنْحَى عَلَى الْأَمَةِ إِفْلَاسُهَا
 مَا هَمُّهَا فِي دَوْرِ حُكْمِهَا إِلَّا بَأْسُ تَمَلُّدِ أَكْيَاسُهَا
 فَلْتَتَّحِدْ فَعَلًا عَسَى هَمَّةٌ تَهْتَاجُ بِالتَّوْحِيدِ أَقْبَاسُهَا
 وَتَتَنَعَّشَ الْأَنْفُسُ مِنْ أَمَةٍ تَلْهَيْتُ بِالذِّلِّ أَنْفَاسُهَا

وقس على هذه القصيدة كثيراً من اقواله
 وقد أشرنا سابقاً الى ما أثار الحفاظ من اقوال جريدتي طنين واقدام وما حاوله
 بعض كتّاب الأتراك الاغرار من الوقعة بالعرب والحط من لغتهم . وكيف حرّك
 ذلك الشعر العربي فزخرت لوجه وتلاطمت امواجه حتى كنت تراه في العراق كما تراه في
 سوريا والمهاجر نائراً بالنخوة القومية مزبداً بالغيرة الجنسية . ومن هذا الشعر القومي
 الشاعر قصيدة ليوسف حيدر البعلبكي يذكر فيها اجداد العرب ثم يقول مشيراً الى
 جريدة اقدام التركية^(١)

فَقُلْ لِّجَهْلِهِ رَاحَ يَلْتَمُ عَرَضُهُمْ وَلَمْ يَدْرُ أَنَّ الْوَيْلَ مِنْ جَهْلِهِمْ طَرًّا
 خَلَفْتَكُمْ كَانَتْ بَقَايَا فَخَارِهِمْ وَنَلَمَ هَدَى الْإِيمَانَ مِنْ فَضْلِهِمْ طَرًّا
 فَلَا حَرْبَ ذِي قَارٍ صَلَّتْهَا سَيُوفُكُمْ وَلَا صَنْتُمْ عَنْ فَارَسٍ عَرَضَكُمْ قَهْرًا
 فَدَعِ عَنْكَ يَا هَذَا مَبَارَاةَ مَعْشَرٍ إِذَا ذَكَرُوا فَالْكَوْنُ يَذْكُوكُمْ بِهِمْ بَشَرًا

ومن هنا يأخذ بوصف العرب وشرف نفوسهم ونخوتهم الجاهلية ويحتم ذلك بقوله :-
مناقب في صدر التواريخ أثبتت متى نشرت فاحت بذكرهم نشرها
لقد أقسموا أن لا يقرّوا على أذى وقد خاب يوماً من على الذل قد قرّا
ويصل هذا الوصف بذكر الاتراك وسوء سياستهم فيقول :-

يريدون منا ان تموت نفوسنا ونرحب في أفعال طيشهم صدرا
يريدون منا أن تطيش حلومنا وان تخفض الاصوات في مجلس الشورى
ثم يلتفت الى قومه مستفزاً حماسهم :-

اليكم بني الاعراب أرفع قصتي لأبلغ فيها من لدن قومنا عذرا
لعلي أرى من عزمكم ما يسرني ومن جدكم ما تعظمون به قدرا
عليكم سلام الله ما دام عرضكم مصوناً لديكم لا يُباع ولا يشرى

* * *

وبجاريه في هذه العصبية والدفاع عن الامة العربية عبد الحميد الرفاعي فيقول في قصيدة نظمت ردّاً على تنديد الاتحاديين باللغة العربية^(١) ومطلعها :-

شَنَفْ بذكر مفاخر العربان سمعي وأنعش خاطري وجناني
فحديث آباء الفتى يُنشي به عزمًا لنفخ الروح في الجثثانِ
ولربّ آثارٍ لهم تذكّارها يهب الضمائر قوة الايمانِ
تتفاخر الاجيال في اخبارهم والشمس لا تحتاج للبرهانِ
أهل الشجاعة والبواعة والوفا والصدق والايثار والاحسانِ
جعلوا الممالك تحت ظلّ سيوفهم متطلّعين ذوائب المراتِ

وعلى هذا النمط يستمرّ في مدح العرب وذكر مفاخرهم ، ثم يتناول لغتهم ويبين فضلها ورفيع شأنها كقوله :-

لغة بفضل جمالها وجلالها شهدت شواهدُ محكم الفرقانِ
لغة اذا أدركت سحر بيانها أدركت معنى السحر في الاجفانِ
وبعد ان يصفها في عدة ابيات يلتفت الى مناوئتها فيقول :-
قل للألى جهلوا مكانتها وقد كادوا لها في السرّ والاعلانِ

عاديتموا ما تجهلون ولم يعب قدر الورود كراهة الجعلان
والله يأبى ان تهان فبشروا من رام ذلتها بكل هوان
اما أبناءها الذين انصرفوا عنها الى اللغات الاجنبية فيعاتبهم بقوله : --

كل اللغات لديك بالغة الهدى خدّم وأنت مليكة الايوان
ظلموك أهلك بالجفاء فأصبحوا والكل يمشي مشية السرطان
لم يحفظوا لك ذمة وتعلقوا بهوى السوى ورموك بالهجران
لكنهم غرّوا بغيرك حقبة من دهرهم والدهر ذو ألوان
حتى اذا انكشف الغطاء وأيقظت مُقلّ الرجال حوادث الازمان
نهضوا وكلّ يستعيز برّبهِ بما انتشى ويسبّ بنت الحان

ومثل ما تقدّم قصيدة لامين ناصر الدين (لبنان) نظمها سنة ١٩١٠ وفيها يقول (١) :-

أنسيت قدر العرب يا إقدامُ ولهم على هام النجوم مقامُ
أجهلت ما نالوه من شرف به يسمو الزمان وتفخر الايامُ
لولاهم لم تجر فوق مهارق يوماً بذكر مفاخر أعلامُ

وبعد ان يعدد مناقبهم ومفاخرهم التاريخية يقول : -

ان أسرف الحساد تنديداً بنا فلطالما ذمّ الكرام لئامُ
نحن الألى بدت النبوة بيننا ذاك البناء فأزهر الاسلامُ
نحن الألى بلسانهم قد أنزلت آي الكتاب وذلك الالهامُ

ثم يلتفت الى الجريدة التوكية مؤنباً ومعاتباً : -

أرسلت يا إقدام سهم وقية لكن أعيد اليك وهو سهامُ
أكذا يقوم بخدمة الاوطان ذو قلمٍ ويطلب الرقي همّامُ
أيظنّ أنا نرتقي الا إذا ضمّ العناصر ألفة ووئامُ

ويظهر هذا التفاخر الجنسي في قصيدة « ألواح الحقائق » لمحمد حبيب العبيدي

الموصلي سنة ١٩١٣ وفيها يقول (٢) : -

(١) ديوان صدى المطاطر (١٩١٣) ٩٣

(٢) راجعها في الادب العربي في العراق (لبيدي) ١ - ١٥٢ وقد مر ذكرها في فصل سابق

يا بني الضاد إن للضاد حقاً
 ان رضينا غير الكرامة ورداً
 غصّ منّا بشاربيه الماء
 ليت شعري ما ينقم القوم منّا
 أم على ابصارٍ هناك غشاء
 يشهد الله انّ أول بيت
 للعلى فينا سادّه البناء
 خيرة الله نحن في الخلق بما
 ولدت من أنسها حواء
 نحن شيء وغيرنا بعض شيء
 نحن نورٌ وغيرنا الظلماء
 انما ينكر الحقيقة غرّاً
 أو لئيمٌ أو حاسدٌ مستاء
 نحن في الحي مهبط الوحي قدماً
 والينا المصير والانتهاؤ

ولو أردنا ان نذكر كل ما قيل في هذا الباب لضاعت به الصفحات الكثيرة . فقد كانت الاقطار العربية جميعاً تلهج به ، بل قد ردّد صدها الناطقون بالضاد في كل صقع من اصقاع المعمور . فمن الهند يبعث عبد الحق الاعظمي البغدادي سنة ١٩١٣ رسالة الى المنار يقول فيها^(١) « ان لديه علاجاً لاصلاح حال المسلمين واصلاح البشر اجمعين . وهو وصفة مؤلفة من جزئين اوّلها تعميم اللغة العربية في العالم الاسلامي كله وجعلها لغة التكلم والتعلم والتعامل دون سواها » . واما الجزء الثاني فهو تعزيز العنصر العربي « الذي اعزّ الله به الاسلام ورفع مقامه فوق كل مقام » . . قال - « فاذا غلب الاجانب العرب على امرهم وانشبوا براثنهم في احشاء بلادهم فلا عاصم للامة بعد ذلك من امر الله ولا ملجأ ولا منجاة لها من نوائب الدهر وغوائله » . الى ان يقول . . . « نعم ان العنصر العربي جار عليه الظالمون ونهك قواه العادون ومزق وحدته المارقون . لكنه مع كل ذلك لا يزال أصلح العناصر الاسلامية للقيام بامر الاسلام واعادة مجد الانام »

وهو يدعو المسلمين الى تهية اسباب الوثوب للعرب لينهضوا ويتحدوا ويقودوا المسلمين اجمعين كما قادهم أسلافهم الاولون . فان البذل لمساعدة العرب على احياء مجدهم هو عين البذل لاعادة مجد الاسلام الذي ما تأسس بناؤه من قبل الا بأيدي العرب ونفوس العرب وأرواح العرب وقلوب العرب »
 ومن المهاجر الاميركية المسيحية تسمع ما لا يقلّ عن ذلك حماسة في الدفاع عن

العرب وأجادهم . يقول رشيد أيوب (الولايات المتحدة) من قصيدة يعارض فيها القصيدة النامقية التركية^(١)

فتحن بنو الاعراب كنا ولم نزل بما خصنا المولى نفوق الاجانبا
وبعد ان يذكر فضل النبي والصحابة وقواد الفتوح الاولى يقول مفاخرأ
ألسنا الألى سادوا العباد ودوخوا البلاد وأبدوا في الحروب عجائبا
وقصّر عن ادراكهم كلّ لاحق غداة امتطوا ظهر العلى والمناكبا
فكم دولة سدنّا وسدنّا بهمة احدّ من البيض الرقاق مضارباً
وتتعاظم حميته القومية حتى تبلغ به الى قوله —

كذاك بنينا للعلوم معاهدأ وشدنّا لاهل الارض فيها مكاتباً
فما روت الايام من عهد آدم الى اليوم عن شعب يفوق الاعارباً
فيا وطى لا زلت اول بقعة من الارض أبدت للبرايا عجائبا
طويت من الآثار ما لو نشرته لضافت به الدنيا حبساً ومواهباً
واذا انتقلنا الى أميركا الجنوبية نرى النخوة العصبية في مهاجرها أبرز وأشد اتقاداً .
ولا نبعد عن الحقيقة اذا قلنا ان التحمس الجنسي هو صفة أكثر أدبائها . ولولا ضيق
المقام لاثبتنا أمثلة عديدة من نفثاتهم ، على أننا نجتزئ بنماذج لبعضهم — فمن ذلك قول
« أبي الفضل الوليد »^(٢)

ولما رأيت الناس يبنون مجدهم بكيت على آثارنا العربية
نما زهرهم في روضهم متجدداً وقد يبست أزهارنا بعد نضرة
لئن كان في الحرية الخلوة الردى فيا حبذا موتى لتحرير أمي
بني أمّ هل من نهضة عربية لصيحاتها يهتز ركن البرية
وقوله من قصيدة مذكراً العرب بماضي أجادهم^(٣)

سلام على العرب الخالدين سلام العلى وسلام الكرم
واني لأقرأ تاريخهم وقد كتبوه بحبرٍ ودم
فبين السطور ضياء الهدى وبين الجفون دموع الندم

(١) ديوانه الايوبيات (١٩١٦) ٣٧ (٢) ديوانه اغاريد في عواصف (الطبعة الرابعة) ١٥
(٣) ديوانه الانفاس الملتهبة (الطبعة الثانية) ١٠٢ ولهذا الشاعر دواوين أخرى وكلها تلتهم
بالغبرة والعصبية

بني أم هل من نهوض لنا وهل من هيام بتلك الشيم
 وهل من رجوع الى عزنا فبين عظام العظام عظم
 لقد فقد العرب اخلاقهم فسادت زماناً جموع العجم
 فقل يا اخي العربي اذا مشيت معي قدماً لقدّم
 أحب بلادي واصبو الى رمال القفار وثلج القمم

وللشاعر القروي قصائد رائعة في هذا الباب ولا سيما في « اعاصيره » وسنعود اليها بعد . وكذلك سنذكر من آثار زملائه الجنوبيين ما يرسم لنا رسماً جلياً روح الأدب القومي في تلك الاصقاع

ومن الانصاف ان نقول ان الشعر العربي القومي لم يكن كله في ذلك العهد دفاعاً عن محارم العرب ورداً لسهام أعدائهم في الدولة. بل منه ما نشأ عن طبيعة الحال فكانت غايته اصلاحية لا سياسية - الاعتبار بالماضي والحاضر ، وتوجيه النظر الى أسباب الرقي الصحيح كقصيدة انشئت سنة ١٩١٠ في إحدى حفلات ومطلعها^(١) -
 كفّوا البكاء على الطلول الممدّ ليس القضاء على البلاد بمعتدي
 وهي ترمي الى إيقاظ العرب للجري في سبيل التقدم الاجتماعي والقومي فتحضهم أولاً على توحيد الكلمة تحت راية اللغة :-

أبني العراق ومصر إنا أمة قعدت بها الايام أسوأ مقعد
 إن فرق الايمان بين جموعنا فلساننا العربي خير موحد
 قربت به الاقطار وهي بعيدة وتوحدت من بعدت في اليد
 ومن هنا تجري القصيدة في وصف هذا التقارب الادبي ثم تتطرق الى النظر في الدين وانه اختبار شخصي لا علاقة له بالجامعة القومية المنشودة

دعني وشأني والذي أنا عابد وكلما يشا ايمان قلبك فاعبد
 إني أخوك وان يكن ايماننا في البعد ما بين الثرى والفرقد
 ومنها مخاطبة للطائفة الكبرى في البلاد
 قد كنتم اهل البلاد واننا كنا كذلك في الزمان الأبعد

كُتِمَ وكُنَّا والبلاد بلادكم وبلادنا فعلام لم نتوحد
 وإلامَ يقتلنا التعصب عن عمى ويتبه فينا الجهل تبه السيد
 وإذا كان لا بد لرقى الشرق العربي من اتحاد لغوي لا ديني فانما يتوصل الى ذلك
 بتوقية الشعور القومي وتربية النشء على محبة بلادهم وتكريم رابطتهم الوطنية
 ربوا البنين على احترام بلادهم فهم المرجى للحوادث في الغد
 قولوا لهم إن البلاد جميلة شهدت لها الاعداء أم لم تشهد
 حتامَ نصغر في عيون نفوسنا والامَ نسعى كالسوام الشرذ

إذا فعلنا فيه وإلا فباطل دستورنا وباطلة مساعيها نحو العلى
 ان تفعلوا فلقد يتم صلاحنا أو لا فما دستورنا بالمسعد
 المجد للفعال في هذا الورى والارض ملك الفارس المستأسد

ومثلها قصيدة للرصافي نظمها في الاستانة سنة ١٩١٠ وموضوعها « الى الامة
 العربية ». سداها ولحمتها اسف على مجد العرب الغابر وحض لهم على نفى الجمول
 والجري في سنن الحضارة والتقدم . والشاعر فيها وان يكن كما قال « الى اليأس
 احيانا أكاد أميل » ، لا يبتلك ان يحتبها متحمساً^(١) : -

ألستم من القوم الألى كان علمهم له كل جهل في الانام قتيل
 له همة ليس الظباة تفلها وان كان منها في الظباة فلول
 ألا نهضة عامية عربية فتعش ارواح لنا وعقول
 ويشجع رعديد ويعتز صاغر وينشط للسعي الحثيث كسول

ولو دققنا النظر في روح الشعر العربي في العهد الدستوري لوجدنا انه مع شدة
 تحمسه للعصبية العربية، ومفاخرته بأجداد العرب الاقدمين كان لا يزال عطوفاً على الجامعة
 العثمانية ، فوراً من صلف المستعمرين الاوربيين واطماعهم . يدل ذلك على ذلك انه كان
 في اول الامر ينصر الحطة اللامركزية التي كان ينشدها الاصلاحيون اعتقاداً منه انها
 ترمي الى تعزيز العرب ضمن السلطنة العثمانية . فلما اشيع بواسطة الدعايات التركية ان
 للحركة الاصلاحية ولاسيما المؤتمر العربي في باريس علاقة بالاستعمار، وانها لذلك صدع

للجامعة العثمانية^(١) ، رأينا الشعر يقف موقف المرتاب . بل رأينا بعض المتحمسين يتراجعون على الاعقاب - كمعروف الرصافي فانه نظم بضع قصائد في ذلك . ومنها قصيدة موضوعها « ما هكذا » يحمل فيها على الاصلاحيين فيقول^(٢) : -

أصبحت أوسعهم لوماً وتثريباً لما امتطوا غارب الافراط مركوبا
راموا الصلاح وقد جاءوا بلائحة خرقاء تترك شمل الشعب مشعوبا
لو كان في غير باريز تألبهم ما كنت أحسبهم قوماً مناكيبا

فاجتمعهم في باريس كان عنده مدعاة الى الاستعمار او توطئة له . وهو لذلك يتطير منه فيقول : -

هل يأمن القوم ان يحتلّ ساحتهم جيش يدك من الشام الاهاضيا
يا أيها القوم لا يغرركم نفر ضجّوا بباريز افساداً وتشغيبا
فسوف يقرع كل سنه ندماً ويسبل الدمع في الحدين مسكوبا

ولم يسكت الاصلاحيون عن حملات الرصافي فردوا عليه ردّاً عنيفاً وأجابهم بالمثل . بل بلغ به الحال ان نظم فيهم قصيدته « ليللة نابغية » فلاها بما يجب ان يتنزه الشعر عنه من هجو وتشنيع^(٣)

وقد اتهم الرصافي يومئذ بمشايعة الاتراك ترفلاً ، او انه قد اخذ بالدعايات التركية فكان في حكمه متسرعاً . والذي يلوح لنا ان هذا الشاعر العربي لم يكن الوحيد في حذره من الحركة الاصلاحية وغيرته على الجامعة العثمانية . فقد ظهر في انحاء مختلفة من البلاد العربية ما يشير الى حذر المحلّصين وخشيتهم من امتداد ايدي الاستعمار وتصديق جامعة الوطنية العثمانية ومن ذلك هذه القصيدة التي أنشئت في بيروت ١٩١٣ وموضوعها « حديث خطير » وهاك بعض ابيانها^(٤)

(١) راجع وصف هذه الدعايات في المنار ١٦ ص ٦٣٤ و ٦٣٥ (٢) ديوانه ٣٨١

(٣) ديوانه ٣٨٥ (٤) المورد الصافي مج ٤ ص ٣١٦

حلك السياسة حولنا متكاثف تقذى العيون به فليس بصير
في المشرق الادنى لظى متطايّر وسعير نار بالوبال نذير
علقت بأطراف الشّام شرارة منه فجاشت أنفـس وصدور

وبعد وصف الحالة السياسية عموماً وحال البلاد السورية خصوصاً يقول الشاعر
للاصلاحين

أحسبتم الاصلاح أمراً هيناً يكفيكم منه لحاً وقشور
فصراخكم عبثٌ اذن وضجيجكم ووعود اوربا لكم تغير
ما مثل عاصمة العواصم ملجأ كلا وخير الابحر البوسفور

وكانه يعتذر عن هذه الحركة ويحاول تفسير أسبابها فيقول : -

عرش الخلافة ما البلاد بثورة مهما علا فوق الطروس صير
ما زال يجمع اهلها تحت المهلال بظلك التوحيد والتكبير

وانما السبب الحقيقي في طلب الاصلاح ان الدستور لم يطبق كما يجب وان الحكم
لا يحكمون طبقاً للارادة السنية . فكانت النتيجة تشويش الاحكام وفقد الامن
واضطراب الاحوال الاجتماعية والاقتصادية : -

إن يشتكوا المأفليس لنقمة في النفس حرّ كهـا هوئى وغرور
او يرفعوا صوتاً فسلّ حكاهم هل يحكمون كما قضى الدستور

ومثل ذلك قصيدة لشبلي الملائ انشدها سنة ١٩١٣ بمصر في حفلة تكريم خليل
مطران . وفيها يذكر حرب البلقان وما طرأ على الدولة العثمانية من طوارئ . ثم
يشير الى ما كان قد أشيع عن شتمة بعض العناصر العثمانية باضطراب الدولة وضعفها
فيقول دفعاً لتلك الشوائع وتبيناً لموقفهم من العرش العثماني : -

أخطا الألى نسبوا البعض عناصرٍ منها شعور شتماتٍ وتحامي
فلنحن نعلم ان عرش محمدٍ خير لنا من سائر الاحكام
بل نحن نفهم انه برّ بنا من كل محتكم من الآنام

والشاهد في هذه الايات وما تقدمها ان الشعر كان لا يزال يرى في العرش العثماني مؤثلاً للشرقيين وان الاصلاح لا يعني الانفصال عنه والالتجاء الى امم الغرب . على ان ذلك لم يقف دون انتشار الدعوة للقومية العربية والمطالبة بحقوقها في السلطنة . وقد أعلنت الحرب الكبرى سنة ١٩١٤ وتلك هي العواطف السائدة في البلدان العربية . وقد علمنا في فصل سابق كيف رُجّت تركيا في أوارها وكيف عمّ الاقطار السورية والعراقية الارهاب العسكري فصمت فيها كل لسان حر وخبت كل نزعة قومية

ثورة العرب

مأتمرهم تأسيس ملك عربي

حدث في اثناء الحرب الكبرى حادثان كبيران كان لهما اثر عميق في نفسية العرب وبالتالي في شعرهم ، هما اعدام الشهداء ، والثورة الحجازية . ولسنا في مقام البحث عن الاسباب التي أدت الى كليهما وانما نحن نؤرخ الواقع وأثره في ادبنا العربي الحديث ومن المعلوم ان الدولة العثمانية لم تكن قبل الحرب عمياء عن الحركات القومية العربية فأخذت تبث عيونها في كل ناحية لتلم بكل شيء من امرها . ولم تكن في اول الامر تظهر القسوة والشدة كما يستدل من مفاوضاتها لزعماء الحركة الاصلاحية الذين اجتمعوا في باريس برئاسة عبد الحميد الزهراوي^(١) . على انها كظمت ما في نفسها خوفاً من تدخل الاجانب وجعلت تتحين الفرص السانحة

فلما اشتعلت نيران الحرب العامة والغيث الامتيازات الاجنبية اسرعت الدولة الى تفتيش القنصليات المعادية فوقع في يديها بعض الوثائق السرية وبها تمكنت ان تكشف كثيراً من اسرار الجمعيات العربية^(٢) وحينئذٍ شمرت عن ساعد الجد فقبضت على جماعة من الزعماء ، وتمكن بعضهم من الفرار الى اوربا ومصر

وأحيلت الاوراق الى الديوان الحربي فحكم على نخبة من اعيان الوطنيين بالموت شنقاً . وقد نفذ الحكم في ٦ ايار (مايو) سنة ١٩١٥ في دمشق وبيروت . وحكم بالاعدام غيابياً على نحو ستين من الوجهاء ، فضلاً عن عوقبوا بالنفي او بالسجن^(٣)

(١) راجع صورة الاتفاق بين الطرفين في المثار ١٦ - ٣٣٩ (٢) راجع تفصيل ذلك في كتاب الثورة العربية لامين سعيد ١ - ٦٦ (٣) راجع اسماء الشهداء والمحكوم عليهم غيابياً في كتاب ايضاحات الذي اصدره جمال باشا وكتاب الثورة العربية الجزء الاول

ومن الصعب الآن ان يصف كاتب ما خالج قلوب السكان يومئذٍ من الملع والنقمة .
وها نحن نعيد ذكرى تلك الايام المؤلمة فيعود الى نفوسنا ما كنا نشعر به من الضغط
والرهبة - شعور نحيف كان نجيم على البلاد حتى لم يكن احد يجسر على التكلم او
البحث في الشؤون السياسية او اظهار الاسف على شهداء العربية

على ان ذلك الضغط التركي الرهيب لم يخلُ من فائدة اجتماعية فقد كان من اسباب
التقارب بين الطوائف ، وذلك لارتباطهم بشعور عام انهم عنصر مظلوم . وأثر ذلك
بين في الشعر العربي لذلك العهد

والى ذلك الضغط وذلك الشعور الاليم بالظلم يرجع السبب في توسيع شقة الخلاف
بين العنصرين التركي والعربي ، وبالتالي الى تسهيل مهمة الحلفاء في سوريا والعراق ، ثم
الترحيب بهم يوم تمكنوا من الفوز على تركيا وفصل الاقطار العربية عنها . وبما
يعكس لنا هذه الحال قصيدة لرضا الشيبني نظمها على اثر طرد الاتراك من العراق
وهي تحمل لنا أسفه بل اسف العثمانيين في العراق لسوء السياسة التركية التي أدت
الى التفرقة بين عنصري الدولة الكبيرين . وفيها يقول (١) :

يا من يعزّ علينا ان نؤثّ بهم في حيث لا ينفع التائب والعدلُ
جفوتونا وقتم نحن ساستكم متى مطيتها الاخفاق والفشلُ
تأبى الحوادث الا ان نملككم ولا ودين التأخي ما بنا مللُ
أما صفحنا عن الماضي لأعينكم أما أدلت لكم أيامنا الاولُ
ومنها مشيراً الى حكومة الاتحاديين وسوء إدارتهم : -

قيّضتم لحفاظ الملك طائفة لغيرها الملك والاجناد والدول
قوم من العرب وخز النحل حظهم وحظ قوم سوانا الاربي والعسل
عند المغانم تنسوننا ويفدحنا من المغارم ثقل ليس يحتمل
أين الرهين بأموال لنا ذهبت ومن يقيدُ باخوان لنا قتلوا
إما شهيدٌ معلّى فوق شاهقة او موثق بجبال الاسر معتقل
فالشاعر هنا يعيد ذكريات الحرب وما قبلها ويعزو الى الاتحاديين ما أصاب البلاد
من شقاء وما نجم من خلاف أدى الى إيهان قواها ووقوعها في يد الاعداء

(١) راجع كتاب «العراق في دوري الاحتلال والانتداب» للحسيني ص ٥٥ وديوان الشيبني ٢٧

ومن البديهي ان الشعر العربي في الاقطار العثمانية لم يستطع اثناء الحرب ان يبكي الشهداء كما كان يود . فلما وضعت الحرب اوزارها وخرجت سوريا والعراق والحجاز من المنطقة العثمانية عاد الشعراء الى ذكريات شهدائهم وصاروا يعددون مآثرهم . وقد رفعهم الشعر الى مصاف الابطال فافتت في تمجيدهم وتقديس أهدافهم ، كما فعل الزهاوي في قصيدته « النائحة » وهي تقارب المائة والستين بيتاً . ولا نخطيء اذا سميناها « معلقة الشهداء » . ففيها يصف المشانق وقبور القتلى وأهلهم ، ويذكر أسماء الشهداء واحداً واحداً باكباً شباههم طالباً الثأر لهم . ثم يذكر ما أصاب الناس من نفي وتشيت . ويعقب بذكر الثورة ودخول العرب دمشق ثم يحتتمها بدم جمال باشا ، والتقاؤل بعهد زاهر ينسي العرب ماضي آلامهم : واليك بعض أبياتها (١) : -

على كلِّ عود صاحبٌ و خليلٌ وفي كل بيتِ رنةٍ وعويلٌ
علاها وما غير الحمية سلَّمٌ « شبابٌ تسامى للعلی و كهولٌ »
لقد ركبوا كور المطايا يحثهم الى الموت من وادي الحياة رحيلٌ
رجالٌ عليهم من سنا الفضل رونقٌ وللمجد فيهم غرةٌ وحجولٌ
مشوا في سبيل المجد يحدهم الردى وللحق بين الصالحين سبيلٌ

قبورٌ ببیروت وأخرى بجلتقِ تُجرّ عليها للرياح ذبولٌ
سرتٌ وروحهم تطوي السماء لربها وما غير ضوء الفرقدين دليلٌ
وبعد ان يذكر الشهداء ويعدد أسماءهم وصفاتهم يقول : -

بني يعرب لا تأمنوا الترك بعدها بني يعرب ان الذئاب تصولٌ
ولن تسكن الايام عن عصبة جنوا ولكن بما كالوا لهم سنكيلٌ
وقد سلبوا حرية الناس مذعوا وتلك مرادٌ للحياة وسولٌ
وصبّوا دماءً من شعوب بريئةٍ فاخضل وهدات بها وتولٌ
ومنها مخاطباً جمال باشا : -

جمالٌ لأنت القُبج سمّوك ضده وثوبك اذ أرقلت فيه ذليلٌ
تريد لمجد العرب فيما أتيتهُ زوالاً ومجد العرب ليس يزولٌ
رويدك لا تغترّ بالدهر ان صفا ولا تأمن الايام فهي تدولٌ

وراءك لا تقرب رواسي يعربٍ فـقرب رواسيها عليك وبيلُ

ولخير الدين الزركلي قصيدة نظمت (كما جاء في ديوانه) « على اثر اعدام الترك
فريقاً من شبان العرب بسورية وقيام الثورة بالحجاز » ومنها في الشهداء (١) : -
نعي نادب العرب شبانها فجدد بالنعي أحزانها
بكى كل ذي عزّة تربه فهاج نزاراً وعدنانها
فمن للمدامع ان لا تفيض وترسل كالسيل هتانها
فجائع هنّ حديث القلوب وهيمات تستطيع سلوانها
ومنها : فأبكى على غرر المسلمين أباة المذلة قرآنها
وابكى على آل عيسى المسيح شمر العرائن صلبانها
نعت لغة العرب من احكموا لسان قريش وتبيانها
وناحت على من بنوا عزّها واعلوا بما اثلوا شأنها
وهناك قصائد لغير هذين الشاعرين فلتراجع في مظانها (٢)

وكما نسمع بكاء الابطال في الوطن نسمعه في المهاجر . فان المهاجرين لم يكونوا
يوماً اقلّ حماسة من اخوانهم المقيمين . والذي يقرأ دواوين ابي الفضل الوليد ، والشاعر
القروي ، وفرحات ، والجرّ ، وصوايا وسواهم يرى من انتقاد العروبة ما قد لا يراه
في البلاد العربية نفسها . واليك انموذجاً من شعر المهجر في الشهداء وهو من قصيدة
موضوعها « ليحيى العرب » (٣)

بلاد الشام غادرك الكرامُ فعيش الحرّ فيك اذن حرامُ
لقد كثرت من العرب الضحايا ولم يهتزّ في الغمد الحسامُ
ومنها مشيراً الى السفاكين حاضاً العرب على الثورة -
وحثّام الخفاة من علوج لهم ذمّ وليس لهم ذمامُ
يرون محبة الاوطان جرماً به تهوي من الاحرار هائم

(١) ديوانه (١٩٣٥) ٦٥ (٢) راجع منها « جزاء سوريا » لامين ناصر الدين في ديوانه
الالهام ٥٧ (٣) ديوان الانفاس الملتزمة (للوليد) ٧٢

لقد قتلوا العواطف والمزايا ففي احشائنا منها سهام
أبقى ساكتين بلا حراكٍ وللثورات حولينا اضطرام
ثم يخاطب الشهداء ويصف شجاعتهم لدى الموت

أيها صحي الكرام ألا فداكم لثامٌ بعد ما قلّ الكرام
مشيتم باسليين الى المنايا وكان لكم على النطع ابتسام
ليحي العرب قد صحتم وتم فصيحتم خُطتكم دوام
فنحن لدى بسالتكم حيارى وأنتم فوق ذلتنا عظام
على أعواد مرقية زُفَعتم مناراتٍ بها يهدى الانام
وكنتم قدوةً للشعب مُثلى فهل يُرجى له يوماً قيام
ويتقدّم من هنا الى مخاطبة ارواحهم ثم يختم قوله بالحكمة التالية -

وربّ ضحيةٍ أحيّت شعوبا فكان لها انعتاق وافتحام
على البلوى اذن صبر جميل لنا آملنا ولك السلام

ولوليد على هذا النسق عدّة قصائد عربية الروح كصدى الاجيال ، والصرخة
الكبرى والدولة العربية وسواها . ومثل ذلك للشاعر القروي . ومن اقواله في
الشهداء قصيدة مطلعها^(١)

خير المطامع تسليم على الشهداء ازكى الصلاة على ارواحهم ابدًا
فلننحن الهام اجلاً وتكرمة لكل حر عن الاوطان مات فدى
يا انجم الوطن الزهر التي سطعت في جو لبنان للشعب الضليل هدى
قد علقتكم يد الجاني ملطخة فكدست بكم الاعواد والمسدا
بل علقوكم بصدر الافق اوسمة منها الثريا تلظى صدرها حسدا
أكرم مجبل غدا للحرب رابطة وعقدة وحدت للعرب معتقدا

والقصيدة كلها - كما ذكر شعر القروي - غيرة وطنية متقدمة ، واذكاءً لنار الحمية
القومية في صدور الشبيبة العربية . وقد اتخذ الوطنيون في سوريا ولبنان يوم ٦ ايار (مايو)
عيداً تذكارياً عاماً . ففي بيروت كما في دمشق يقيمون كل عام مهرجاناً حافلاً يلقون
فيه الخطب والقصائد ذاكرين اولئك الوطنيين الذين ضحي بهم على مذبح السياسة

والقومية ولو جمع كل ما قيل فيهم منذ انتهاء الحرب الكبرى الى الآن للمأجداً
ضخماً . فلنقف هنا عند حد الاشارة اليها

اما الثورة الحجازية (او العربية) فقد اعلنت في مكة في ٢ حزيران سنة ١٩١٦ .
والذي يطالع ما نشر من الكتب والرسائل عنها (عربي وغير عربي) يصل الى
النتائج التالية -

١ - ان الشعور العربي القومي الذي شهدناه يتأجج عقب اعلان الدستور حتى
توصل الى المطالبة باللامركزية خبا في اول الحرب . ولكنه لم يلبث ان تحول الى
كراهية للترك ورغبة في التخلص منهم لضغط الاتحاديين في اثناء الحرب
٢ - ان العلاقة بين الاستانة ومكة كانت على شيء من التوتر وقد زادها توتراً
اتصال شريف مكة بالجمعيات العربية

٣ - ان الحلفاء وأخصهم بريطانيا تمكنوا من اجتذاب الشريف حسين بن علي
اليهم بوعود خلافة منها انهم يساعدونه على استقلال العرب وتأسيس مملكة عربية
٤ - وبناء على هذه الوعود اعلن الحسين الثورة على الاتحاديين فاشتراك العرب
فعالاً في الحرب الكبرى

وقد كان لهذه الثورة في البلدان العربية (ما عدا مصر) نتائج معنوية خطيرة اهمها
انها اذكت في نفوس الناس العصبية الجنسية ، ووضعت في ايديهم سلاحاً فعالاً
للمطالبة باعادة مجدهم التليد

فاصبح الملك حسين في الادب العربي (في سوريا والعراق) بطل العرب والمطالب
الاكبر بحقوقهم . وانا نلفت النظر هنا الى منشور الثورة^(١) الذي اذاعه باسطاً فيه
الاسباب التي حفزته الى مقاتلة الاتحاديين ومنها اضطهادهم للغة العربية ، وقتلهم لكثيرين
من نوابغ النهضة القومية وما قاموا به في البلاد العربية من نفي أسر وافراد ومصادرة
اموال ومتاجر ، وغير ذلك من الاعمال المنكرة

وقد اشترك في هذه الثورة عدد غير قليل من السوريين والعراقيين ، وبينهم نخبة من
ضباط الجيش التركي سابقاً . ولا بدع فقد اعلن الشريف « انها عربية تشمل كل عربي

(١) راجع المنشور في الثورة العربية (امين سعيد) ١ - ١٢٩ وفي كتاب الوثائق والمعاهدات

كائناً من كان على شرط ان يكون صادقاً لوطنه خالصاً لقومه» (١)
 ولا شك ان الاتراك بذلوا جهدهم لاختاد الثورة . وقد استطاعوا في اثناء الحرب
 ان يكمّوا افواه الناس في سوريا والعراق عن نشر اخبارها . بل ان يملؤهم على
 التشنيع بها . على انها كانت في الحجاز قوّة فعّالة ، وكان للادب نصيب كبير فيها .
 ومن رافقوا الثورة وتغنّوا بها فؤاد الخطيب فقد اوحى اليه بكثير من الشعر
 الحماسي . كقوله من قصيدة حيّ بها استقلال العرب ونهضة الحسين ومطلعها (٢)
 حيّ الشريف وحيّ البيت والحرماء وانفض فمّلك يرفعى العهد والذّما
 يا صاحب الهمة الشّماء انت لها ان كان غيرك يرضى الأين والسّقام
 ومنها مخاطباً الاتحاديين -

يا آل جنكيز ان تثقل مظالمكم على الشعوب فقد كانت لهم نعماً
 فالظلم ايقظ منهم كلّ ذي سنّة ما كان ينهض لولا انه ظلّما
 ومنها مشيراً الى اشتعال الثورة في الحجاز -

فمن يكن عن أبة الضيم في صمم فليسع اليوم صوتاً يحسم الصما
 فقد تكلم صوت النار مرتفعاً من الحجاز فشقّ اليد والأكما
 يا ابن النبي وانت اليوم ناصره قد عاد متصلاً ما كان منفصلاً
 والتفّ حولك أبطال غطارقة شمّ الانوف يرون الموت مفتحاً
 فاصدم بهم حدثان الدهر معترضاً صدّاً من الترك ان تعرض له انهدا
 ثم يلتفت الى العرب مستفزّاً حميتهم ومذكراً اياهم بالجد الغابر

إيه بني العرب الاحرار انّ لكم فجراً أطلّ على الاكوان مبتسماً
 من ذلك البيت ، من تلك البطاح ، على تلك الطريق مشّت أجدادكم قدما
 من كل أروع وثّاب اذا انتسبت بيض الصوارم كان الصارم الحذّما
 لستم بنبيهم ولستم من سلالتهم ان لم يكن سعيكم من سعيهم اما
 الى الشّام ، الى أرض العراق ، الى أقصى الجزيرة سيرا واحملوا العلما

ومثل الخطيب خير الدين الزركلي . ومن نفثاته في هذا الباب قوله سنة ١٩١٨
 من قصيدة عنوانها العرب والترك يصف فيها فظائع الاتراك (٣) -

(١) كتاب ثورة العرب (المقطم ١٩١٦) ٢٣١ (٢) كتاب ثورة العرب (المقطم ١٩١٦) ٢٤٤

(٣) ديوانه ٨٣

عنا أحفاد جنكيز فساقوا سلايل يعرب سوق العبيد
فكم قتلوا من الاخبار صيداً وكم ساموا المهانة من عميد
وكم حملوا على الاعواد ظلماً وكم سقوا المنية من شهيد
ثم يشير الى الثورة فيقول : -

الى أمّ القرى عدت المذاكي وفي أمّ القرى خفق البنود
بروق في الحجاز ومضن وهنا فكان بجلق قصف الرعود
ويقول من قصيدته « الشهداء » وقد مر ذكرها : -

أبى السيف الا انتقاماً لها وخاف على الضيم خسرتها
أثار بني هاشم في الحجاز وأنطق في التوب حسرتها
كتائب هبت تليّ الدعاء وتطوي القفار وكتباتها
برمح يرت وعضب يئن يُنبّه في التوك وسناتها
هو الثار أدركه الثائرون اشجى قروفاً وسلطانها

وقصائد هذين الشاعرين نموذج لما نظم في الثورة والقائمين بها . ومن الذين اشادوا
بالثورة العربية عبد المحسن الكاظمي وديوانه ينضح بروح العروبة وذكرى ايجادها
التليدة^(١)

وما نراه في الوطن نراه في المهجر فقد حركت الثورة هناك الشعر العربي فتبارى
زعماؤه في وصفها وتعدد حسناتها ، وتمجيد من اوقدوها . كقول رشيد ايوب^(٢) -

من اقاصي الروم نهديك السلام مع نسيم السحر
يا شريفاً كلنا نأح المأم فوق غصن الشجر

صاحب السيف الصقيل المستهاب في دياجي المحن
انت من قوم لهم تعنو الرقاب من قديم الزمن

خضتها حرباً على الباغي تدور بكاه اسد
وتوكت التوك اصحاب الفجور عبوة لابلد

فأدر يا أيها الساقى الكؤوس جاء وقت الطرب
واسقنا من خمرة تجلو النفوس من ظلام الكرب

واصغ للبلبل ان لاح الصباح صاح فوق القضب
فلتعث للعز في تلك البطاح دولة للعرب

وهذا الشاعر من مهاجري السوريين في الولايات المتحدة وهم عموماً أقل تأثراً بالحركة العربية من مهاجري أميركا الجنوبية كما يشهد بذلك شعرهم المنشور في الدواوين والصحف وقد أئمننا وسنلم أيضاً بشيء من اقوال هؤلاء «الجنوبيين» الذين كان لهم يد تذكروا في إضرام الروح العربية وحفظ الشعلة القومية بين أبناء العرب في تلك الاصقاع

ولما انسحبت الجيوش التركية من الاصقاع العربية ودخل العرب الشام بقيادة فيصل في ٣ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٨ أخذت الشعرة نشوة الظفر حتى كنت تراه في دمشق وبيروت والقدس وسائر الحواضر تتدفق الحماسة منه تدفق السيل كقول متحمس من قصيدة - (١)

أجل بزغت في الشرق شمس الحقائق برغم العدى والمزعجات الطوارق
غداة انتضى العضب المهتد فيصل بكل كمي رباط الجأش صادق
لعمرك ما العرب الكرام يهوها صليل المواضي او دوي البنادق
ولا راعها ما جرعت من مرائر وقد نصبت قدماً حبال المشانق

وقول الزهاوي من قصيدته النائحة (وقد مر ذكرها) -

وجاءت خيول العرب تعدو وراءها بمقربة للانكليز خيول
هنالك اهل الشام صاحوا وكبروا وكبر اعلام بها وسهول
وكان لاخذ الثار قد ثار ضيغم له في مغار الغابتين شبول
اغر كريم الاصل من فرع هاشم فطاب له فرع وطاب اصول

ويقول امين فاصر الدين في «الالهام» من قصيدة موضوعها يوم الصلح : -
فيالك يوماً فيه وثق للورى عرى الصلح رهط صادق العزم حازم

فنبلت حقوق واستقلت ممالك وأنصف مظلوم وجوزي ظالم
نهضت بهم من وهدة اليأس جملةً فعيثهم غصّ الجوانب فاعم
طلعت عليهم والوجوه عوابس ولم تمض الا والثغور بواسم

وقول اسعد خليل داغر من قصيدته «تاريخ الحرب الكبرى» في فتح سوريا : -

بشراك سورية العزيرة فافرحي وتهلي بخلاص شعبك واطربي
فالله سؤلك قد اجاب فبالغي ما شئت في حمد الاله واطربي
وعلى الألى نجوك آيات الثنا صوغي وعن قدر الصنعة أعربي
اني لمنقذك العظيم لشاكر وبنصره هذا لاكبر معجب

وفي ٢٣ تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٩١٨ احتفل العرب احتفالاً باهراً برفع العلم العربي في المكان الذي شق فيه شداؤهم، فكان لرفعه هزة ادبية عظيمة وهي تتجلى في عشرات القصائد والخطب التي جاشت بها خواطر الادباء من جميع المذاهب. واليك منها هذه القطعة الحماسية وهي من خمس للشيخ مصطفى الغلاييني^(١)

راية العرب راية المدنية راية المجد راية الحرية
انت مهوى آمالنا الوطنية ومنار يهدي السبيل السوية
دمت فينا مدى الزمان عليه

بك فحمي الحمى المفدى ونجني ثمرات تحيي القلوب وتغني
ونرجي الحياة في روض امن وارف ظله خصب اغن
في حمى دولة العلى العربية

ومن هذه الحماسيات قول شاعر مسيحي من موشح^(٢)

ايها الابطال حيوا العلماء واحملوه
وانصبوه فوق اسوار الحمى واحرسوه
كن لقومي رمز مجد وعلاء في الامم
وتموج فلك الشعب فداء يا علم

(١) راجع قصيدته «نشيد الحرية» في ديوانه (٢) حلیم دموس . ديوانه - ٣٠٧

ويعكس شعور المهاجرين قول ابي الفضل الوليد من قصيدة موضوعها نشيد العلم^(١)
العرب حولك جندُ ايها العلمُ منهم تألفت الاوطار والههم
من خضرة وبياض نعمة وهدي وحمرة وسواد نقمة ودمُ
الوانك استكملت اجماد مملكة فيها تلاقى النهي والبأس والكرم
اليك نزنو وفي اجفاننا عبرُ وفي القلوب شعور بات يجتدم
من الحجاز الى ارض الشام الى ارض العراق لك الآفاق تبسّم
اذا طلعت تطلّعنا الى شرف وعزة فاطلت حولنا الامم
وقس على هذه الامثلة القليلة ما لو أثبتناه لما وسعته عشرات الصفحات

كان الحزب العربي يأمل تأليف سلطنة عربية تضم الشام والعراق والحجاز وسائر
الجزيرة العربية تحت العلم الهاشمي . فتكون هذه الاقطار امارات مستقلة في اداراتها
الداخلية ولكنها مرتبطة بعرش واحد يجلس عليه الحسين وأولاده من بعده . وكان
هذا الحزب يوالي دولة بريطانيا العظمى ويعتبرها سنداً للدولة العربية وحليفة لها على
طواريء الزمن

فلما انقضى العام الاول على تأسيس حكومتهم في دمشق ظهر لهم ان ثقتهم بوعود
الحلفاء لم تكن قائمة على أسس ركين ، وان الأعياب السياسة الاستعمارية لا يؤمن شرها ،
فاخذ التشاؤم يتسرب الى نفوسهم . وبعد أن كانوا بالامس يطفرون طرباً لذكر
الثورة والعلم العربي والسيادة القومية ، وقفوا يتهايمسون بما سيؤول اليه أمرهم .
وطبيعي في مثل تلك الحال أن يمس زهرة شعرهم القومي شيء من الذبول - مسحة من
الشعور بالظلم . وعلى ذلك قول الزركلي سنة ١٩١٩ من قصيدة مطلعها : -^(٢)
فيمّ الونى وديار الشام تُفْتَسِمُ أين العهود التي لم تُرْعَ والذمم

وهي أكثر من اربعين بيتاً ، وقد يصل فيها شعوره الى درجة الثورة على الظلم
فيقول متوعداً -

اليّة بساء ظلمت وطني وأنبتت عشبه بالغيث ينسجم
لئن تولّوا رعينا حسن ودمّ وصين منا ومنهم في العروق دمّ

وأشد من ذلك قول الغلاييني في دمشق سنة ١٩٢٠ - (١)

هَبُّوا فَأَمْتَكُمْ أَمْسَتْ عَلَى خَطَرٍ جَارَتْ عَلَيْهَا الْإِعَادِي جُور مُنْتَقِمٍ
حَتَّى تَسِيلَ رُبُوعَ الشَّامِ مُفْعِمَةً دُمًّا يَسِيلُ الرَّدَى فِي سِيلِهِ الْعَرَمِ
وَذِمَّةَ الْعُرْبِ وَالْأَيَّامِ شَاهِدَةً لِنُضْرَمِنِّ الْوَعَى فِي السَّهْلِ وَالظَّلَمِ
حَتَّى يَخْلُتُوا بِلَادَ الْعُرْبِ أَجْمَعَهَا مِنْ سَاحِلِ الرُّومِ حَتَّى سَاحِلِ الْعَجَمِ

ولم يكن شعراء المهجر أقل من شعراء الوطن شعوراً بمكائد الاستعمار وخوفاً من ضياع الآمال . ففي الحفلة الكبرى التي أحيها الحزب الوطني السوري في بونس ايرس سنة ١٩٢٠ احتفالاً بتسليم فيصل عرش سوريا القى الدكتور جورج صوايا قصيدة حماسية قال فيها مخاطباً الأمة العربية (٢) -

يَا أُمِّي جَاهِرِي بِالْحَقِّ لَا تَجْمِي وَنَازِعِي الْخَلْقَ بَقِيَا مَجْدِكَ الْهَرَمِ

ومنها مشيراً الى فيصل والعلم العربي -

قَدْ قَامَ فِينَا صَلاَحُ الدِّينِ وَيَحْمِيهِمْ فَلْيَقْهَمِ الشَّامُ مِنْ قَدْ قَالَ لَمْ يَقَمْ
فَفِيصَلِ الْعُرْبَ مُسْتَلٍّ بِسَاحَتِهَا فِي حُدُودِ الْخَلْدِ بَيْنَ الذِّلِّ وَالشَّمَمِ
يَا أَيُّهَا الشَّعْبُ دَافِعٍ عَنْ كَيَانِكَ لَا تَجْبُنْ وَذِدْ بِالْقَنَاءِ عَنْ مَجْدِ ذَا الْعِلْمِ

وقد حملت الحماسة شاعراً كبيراً من شعراء المهجر ان يطلب من وطنه لبنان الانضمام الى الدولة العربية في سوريا واليك بعض قوله في ذلك (٣)

فَإِنْ لَمْ تَرْضَ بِالْعُرْبِ اتِّصَالاً فَلَا تَجْعَلْ جِزَاءَ الْخَيْرِ شَرًّا
وَلَا تَطْلُبْ لَأُورْبَا انْتِصَاراً عَلَى الشَّعْبِ الَّذِي وَلَاكَ نَصْرًا

ويقول مخاطباً فيصل -

أَفِيصَلْ وَالْمَطَامِعُ مُحَدَّقَاتُ بَنَى وَحَوَادِثُ الْإَيَّامِ تَتَوَّى
فَلَا تَتْرُكْ لَذِي طَمَعٍ عَلَيْنَا يَدًا تَخْفِي وَرَاءَ الْخُلُوِّ مَرًّا

(٢) ديوانه همس الشاعر ص ١٠٥

(١) ديوانه ٦٦

(٣) لباس فرحات - راجع مجلة الإصلاح (بونس ايرس) مج ٦ عدد ٨

ثم يتطرق الى ذكر الاحزاب واختلافها والى آمال الوطنيين الاحرار فيقول
متوعداً -

وان نفشل ويغشى الشام ضيمٌ جعلنا الشام للافرنج قبرا
ولهذا الشاعر الوطني كثير مثل ذلك

ومن يراجع الشعر العربي السياسي في السنتين التاليتين للحرب (١٩١٩ و ١٩٢٠) يجده واحداً في جميع الاوساط السورية والعراقية - نقمة على سياسة اوربا في الشرق^(١) ودعوة الى الجهاد في سبيل الاستقلال والمحافظة على كرامة العلم العربي . ولعل اهم ما اثار النفوس في ذلك الوقت واقعة ميسلون وما كان من بسط الانتداب على البلاد السورية - ثم الثورة العراقية والمهاجبة العصبية القومية على ضفاف الرافدين (وستذكر في باب خاص)

اما مصر فكانت مشغولة باحوالها الخاصة - كان شعرها السياسي منصرفاً الى محاربة الاحتلال ، وتوجيه نظر الامة الى الاستقلال . وبرغم ما كنا نراه يومئذٍ لبعض ادباء المصريين من العطف على القطرين الشقيقين (سوريا والعراق) لا يسعنا الا ان نقول ان الرأي الادبي العام في وادي النيل لم يكن عربيّ النزعة - بل نذهب الى ابعد من هذا فنقول انه كان قائماً ثورة الحسين على الخلافة العثمانية ، تلك الثورة التي انتهت بانتصار الحلفاء وتعزيز الاحتلال (عهدئذ) في مصر . ولذا وقف الشعر المصري ازاء القضية العربية وقفة المعرض نافضاً يده من كل ما له علاقة سياسية أو قومية بسائر البلدان العربية .

ويؤيد قولنا هذا ما صرّح به مصريّ صميم^(٢) اذ قال في حفلة تكريم الوفد العراقي سنة ١٩٣٦ مشيراً الى هذا الموقف والى تحول الشعور المصري^(٣) -

« منذ عشرين سنة أو نحوها كان اكثر المصريين اذا ذكر البلدان العربية ذكرها في شيء من الموجدة يشبه الالحاد ». وبعد أن يذكر أن نظرم الى الاقطار العربية لم

(١) يمثل ذلك قصيدة « المشرقية » لناصر الدين - ديوانه الالهام ١٨٢

(٢) محمد توفيق دياب منشء جريدة الجهاد (٣) راجع خطابه في صوت الاحرار عدد ٧٦٢

يكن يختلف عن نظرهم الى أي قطر شرقي - كاليابان او الصين مثلاً - يقول - «تلك المرحلة الاولى كانت مرحلة الوسائوس والشكوك»^(١). فلما توالى الخطوب دراكاً على الاخوات المتقاطعات استيقظت روح الايمان من سباتها العميق فاخذت اللسان والاقلام العربية كلما ذكرت العروبة وآلام الشقيقات ذكرتها مصحوبة بشعور من الانحاء لم يكن قبل موفوراً «

وقد كان الشعراء في سوريا والعراق حتى في «مرحلة الشكوك والوسائوس» التي يشير اليها الاستاذ دياب اعطف على القضية المصرية . على ان تحول الشعور المصري الاخير نحو الشقيقات العربية قد زادهم حماسة واهتماماً وسرى بعد كيف يظهر ولاءهم للوطنية المصرية وقدرهم لجهادها .

(١) بوئيد ما ذكره الاستاذ دياب عما كان عليه الشعور المصري سابقاً نصريح للدكتور طه

حسين . راجع «المكشوف» بيروت عدد ١٧٥

المشادة

بين الانتداب والاستقلال

وضعت الحرب الكبرى أوزارها وللوطنيين في البلدان العربية ، ولاسيما مصر وسوريا والعراق ، آمال قومية واسعة . على ان عصبة الامم لم تلبث ان قررت ان هذه البلدان لا تزال في حاجة الى وصاية او ارشاد بعض الدول الكبرى . وهكذا وضع نظام الانتداب او الحماية (سمّه ما شئت) . فاعتوى الشرق العربي شعور عام بالحبية واستفز ذلك العناصر الوطنية فهبت تسعى لنيل أمانيتها . وهذه المساعي هي أساس العوامل التي كان لها أعظم اثر سياسي في شعر الحقبة الاخيرة . وهي تظهر في اربع ظواهر رئيسية : -

١ - كفاح القومية المصرية

٢ - الثورة العراقية

٣ - الثورة السورية

٤ - المشكلة الفلسطينية

ولنلق نظرة عجيلى على كل منها

﴿ كفاح القومية المصرية ﴾ وهو قديم يرجع عهده الى بدء الاحتلال البريطاني، على ان أول من نظّمه وأول من وحد الاتجاهات الوطنية مصطفى كامل مؤسس الحزب الوطني . وقد صدق امين الرافعى إذ قال ^(١) - « تبددت بمصطفى كامل كلّ الاباطيل التي كان خصوم مصر يذيعونها عن الروح الوطنية في البلاد ، وكان احتفال الامة بجنائزه أروع مظهر اثبتت به مصر أنها أمة حية لا تستطيع ان تعيش الا امة مستقلة »

وقد الهب مصطفى كامل الشعر العربي في مصر وفي غير مصر وجراً الشعراء على مهاجمة المحتلين ومطالبتهم بالجلاء، كما دفعهم الى التغني بالحرية والكرامة القومية فلا بدع ان نرى في الشعر العربي عند موته اتقاداً تتأجج فيه العواطف القومية كقول حافظ ابراهيم من يائته المشهورة في ذلك الزعيم - :

هنيئاً لهم فليأمنوا كلّ صائح فقد أسكت الصوت الذي كان عالياً
ومات الذي أحيا الشعور وساقه الى المجد فاستحيا النفوس البواليا
شهيد العلى لازال صوتك بيننا یرنّ كما قد كان بالامس عالياً
يناشدنا بالله ان لا تفرّقوا وكونوا رجالاً لا تسرّوا الاعاديا

وأشد من ذلك قصيدته في حفلة تأبينه ومطلعها^(١) : -

نثروا عليك نوادي الازهار واتيتُ انثر بينهم اشعاري
زين الشباب وزين طلاب العلى هل انت بالهج الحزينة داري
غادرنا والحادثات بمرصد والعيش عيش مذلة وإسار
ما كان احوجنا اليك اذا عدا عادٍ وصاح الصائحون بدار
ومنها: ثم وامح ما خطت يمين كرومر جهلاً بدین الواحد القهار
جزع الهلال عليك يوم تركته ما بين حرّ اسیّ وحر اوار
متلفتاً متحيراً متخيراً رجلاً يناضل عنه يوم فئار

وقصيدته الذكرى ومطلعها: ^(٢)

طوفوا بأركان هذا القبر واستلموا واقضوا هنالك ما تقضي به الذمم
ومنها: هنا الكمي الذي شادت عزائه لطالب الحق ركناً ليس ينهدم
لبّيك نحن الألى حرّكت انفسهم لما سكنت ولما غالك العدم
قيل اسكتوا فسكتنا ثم انطقنا عسف الجفاة وأعلى صوتنا الألم
لبّيك إنا على ما كنت تعده حتى نسود وحتى تشهد الامم
فيعلم النيل انا خير من وردوا ويستطيل اختيالاً ذلك الهرم
يا ايها النشء سيروا في طريقته وثابروا رضي الاعداء ام تقموا
فكلكم مصطفى لو سار سيرته وكلكم كامل لو جازه السأم

ولشوقي في رثاء مصطفى كامل قصيدة مشهورة مطلعها -

المشرفان عليك ينتحبان في مآتم قاصيها والداي

وهي من عيون الشعر. ويدور أكثرها على مآثر الفقيد وشخصيته ومنزلته في قلوب الناس. ومثلها قصيدة لحليل المطران تجدها في ذيل ديوانه مطلعها « اعلى مكانتك الاله وشرفا ». وهي أكثر من تسعين بيتاً عامراً وتُصورُ الفقيد زعيماً وطنياً ضحى بحياته في سبيل بلاده كقوله

مصر التي كافحتْ لِدَّ عُداتها متصدراً لِرُماتها مستهدفا
مصر التي سقت الجيوش مناقباً ومُنَى لتكفيها المُعير المجحفا
عرّفت اهلها حقيقة قدرهم وكفاهم من قدرهم أن يُعرفا

ومن المراتي التي تذكر قصيدة احمد نسيم - ما بال دمك لا هام ولا جار^(١) -
وبمناسبة الذكري السابعة عشرة لوفاة مصطفى كامل نرى لشوقي قصيدة تنضح بالوطنية كقوله يخاطب الفقيد^(٢)

لك الحُطْبُ التي غصّ الاعادي بسورها وساعت للندامى
فكانت في مرارتها زئيراً وكانت في حلاوتها بغاما
بك الوطنية اعتدلت وكانت حديثاً من خرافة او مناما
بنيت قضية الاوطان فيها وصيّرت الجلاء لها دِعاما

وفي هذه القصيدة يستعرض احوال البلاد السياسية ثم يستطرد الى ما تحتاج اليه من وسائل الاصلاح

ومن اراد ان يعرف شيئاً من الحركة الادبية التي احداثها موت مصطفى كامل فليرجع الى الصحف العربية سنة ١٩٠٨ ، والى ما نشر من الشعر في ذلك العهد وكذلك الى ما قيل فيه يوم ازاخة الستار عن تمثاله (١٤ مايو سنة ١٩٤٠)^(٣)

(١) راجعها في ديوانه (١٩٠٨) ص ٢٣ (٢) الشوقيات ١ - ٢٧٧

(٣) راجع «الاهرام» ١٢ مايو ١٩٤٠ وخصوصاً قصيدة خليل مطران التي مطلعها - امنوا بموتك صولة الرثيال

وينتقل لواء الجهاد الوطني الى يد سعد زغلول . وفي سعد تجسّمت خوالج الامة المصرية وامانيها بعد الحرب العالمية الاولى . وقد اصبح مثلاً في الجهاد القومي لكل الامة العربية المجاورة . فها هو يثير مصر مطالباً بالاستقلال ، وها هو يُنفى مع رفاقه الى جزيرة سيشل . ولما افرج عنهم وعادوا الى الوطن استقبلهم الشعر العربي استقبال الابطال وقد اشترك فيه اكثر الادباء في وادي النيل وفي مقدمتهم شوقي وحافظ والمطران والعقاد والمازني ومحمد عبد المطلب واضرابهم . وبموت سعد بلغت الحماسة الشعرية اعلى درجاتها . فنظم في مصر ، كنظم في سوريا ولبنان والعراق والمهاجر ما لا يستطيع حصره الا في مجلد خاص ، من مراثٍ تصف مناقبه العالية وكفاحه الوطني المجيد^(١) . وقد اقيمت له حفلات تذكارية متعددة نذكر منها خارج مصر تلك التي اقامها العراقيون في بغداد ١٩٢٧ وادباء المهجر البرازيلي في سانبولو سنة ١٩٢٨ وقد اشترك فيها ابرز الادباء في تلك الاقطار

ولم تمت الحركة الوطنية المصرية بموت سعد بل ظلّ خلفاؤه يناضلون . وقد استطاعوا بثباتهم ان ينالوا حق الاعتراف باستقلال مصر وعقدوا مع بريطانيا معاهدة صداقة فتمّ لهم تنظيم شؤونهم . ولم يلبثوا ان دخلوا عصبة الامة وقد تحلّل هذا النزاع الطويل الذي رفع لواءه مصطفى كامل وسعد زغلول وغيرهما من رجال مصر حوادث شتى كان لها اثرها الخاص في الشعر كحادثة دنشواي ورفع الحماية ، واعلان الملكية ، وثورة ١٩١٩ ، ومسألة الامتيازات الاجنبية وغيرها . على ان هذه الحوادث عند التحقيق ليست الا حلقات من سلسلة المشادة بين الانتداب والاستقلال

﴿ الثورة العراقية ﴾ من المعلوم انه لما احتلت بريطانيا العراق نشرت للعراقيين (كما نُشر لسواهم من ابناء العربية) منشوراً تبين فيه اسباب احتلالها وأنها انما تقصد تحرير العرب لافتح بلادهم . واليك نص هذا المنشور^(٢) : -

« إن الغاية التي ترمي اليها بريطانيا العظمى وفرنسا من مواصلتها في الشرق تلك الحرب التي اثارها مطامع الامان هي تحرير الشعوب الرازحة منذ زمن تحت نير

(١) راجع من ذلك قصيدة بشارة الخوري « قالوا دعت مصر دهياء » . - راجع ديوان

الالهام ١٦٦

(٢) راجعه في « العراق في دوري الاحتلال والانتداب » للحسني ص ٨٥

الاستبداد التركي تحريراً تاماً وتشديد حكومات وادارات وطنية تستمد سلطتها من رغائب الاهالي الوطنيين الصادرة عن رضاهم وحسن اختيارهم . وتوصلاً لهذه الغاية قد اتفقت بريطانيا العظمى وفرنسا على تشجيع ومساعدة حكومات وطنية في سوريا والعراق اللتين قد تم تحريرهما فعلاً على يد الحلفاء وفي البلدان الاخرى التي يسعى الحلفاء لتحريرها والاعتراف بهذه الحكومات عند ما يتم تنظيمها فعلاً . وان بريطانيا وفرنسا لا يخطر في خلداهما قط ارغام هذه البلدان على قبول نظمات معينة من اي نوع . وجل اهتمامهما هو ان تضمنا لهذه البلدان بمساعدتهما الفعالة سير الحكومات والادارات التي يتخذونها عن محض ارادتهم سيراً منتظماً الخ «

فكان من الطبيعي ان يتوقع العراقيون والسوريون وسواهم عهداً استقلالياً تاماً . لكن الامور في العراق جرت منذ الاحتلال على غير ما يرام فقد رأى العراقيون سوريا تتمتع حيناً (أيام فيصل) بالاستقلال وبالمملك وهم لا يزالون تحت نير الانتداب ثم حدثت حوادث زادتهم امتعاضاً من حكامهم البريطانيين . فأخذ الوطنيون منهم يتفاوضون ويبحثون سراً في موقفهم واتفق الوجهاء ورجال الدين على طلب الاستقلال وتعيين أمير من انجال الحسين . وفي سنة ١٩٢٠ دارت بينهم وبين البريطانيين مراسلات ادّت الى مؤتمر عام قدّم فيه المندوبون العراقيون ثلاثة مطالب رئيسية هي : - (١)

١ - الاسراع في تأليف مؤتمر يمثل الامة العراقية ليعين مصيرها وشكل ادارتها ونوع علاقتها بالخارج

٢ - منح حرية المطبوعات ليتمكن الشعب من الافصاح عن رغائبه وافكاره

٣ - رفع الحواجز البريدية بين انحاء القطر اولاً وبينه وبين الاقطار المجاورة والممالك الاخرى ثانياً ليتمكن الناس هنا من التفاهم بعضهم مع البعض ومن الاطلاع على سير السياسة الراهنة في العالم

والظاهر ان التفاهم بين السلطة والوطنيين كان متعذراً فعمدت السلطة الى سياسة الارهاق، وقبضت على بعض الزعماء فنفت بعضاً واعتقلت آخرين . لكن هذه السياسة لم تأت الاّ بعكس المطلوب . فقد اخرجت الوطنيين ولاسيما سكان وادي الفرات

حتى افق امامهم الكبير محمد تقي الشيرازي بجواز امتشاق الحسام في وجه السلطة دفاعاً عن الحقوق القومية^(١)

وهكذا تمت فكرة اعلان الثورة. وقد القى محمد الباقر الشبيبي يومئذ خطبة حماسية وانشد قصيدة منها^(٢)

بني يعرب لا تأمنوا العدى مكرًا خذوا حذرکم منهم فقد أخذوا الحذرًا
يريدون فيكم بالوعود مكيدة ويبغون ان حانت بكم فرصة غدرا
فلا يخدعنكم لينهم وتذكروا اضاليلهم في الهند والكذب في مصرًا
ومن مات دون الحق والحق واضح اذا لم ينل فخراً فقد ربح العذرا

وفي هذه الثورة يقول مهدي الجواهري من قصيدة^(٣)

إلام التواني في الحياة وقد قضى على المتواني الموت هذا التنازع

وبعد ان يذكر ان في العراق نهضة يقابلها نهضات في سائر البلدان العربية يقول عن
الناشرين

ويوم نضت فيه الجمول غطارف يسان الحمى فيهم وتحمى المطالع
تشوقهم للعز نهضة ناثور حين ظمأ اسلمتها المشارع
لقد عظموا قدراً وبطشاً وانما على قدر اهلها تكون الوقائع
وما ضرهم نبو السيف وعندهم عزائم من قبل السيف قواطع
اذا استكروها طعم المات فأبطأوا أتيح لهم ذكر الخلود فسارعوا

ثم يصف الثورة في الكوفة ووادي الفرات واستفزاز الانكليز لهم، ويعدد مناقب
موري شرارها الاولى الشيخ الشيرازي . ومن قوله فيه : -

اثور به للموت نفس أبية وتأبى سوى عادتهم الطبايع
يطارحه وقع السيف اذامشى كما طارح المشتاق في الأيك ساجع

والقصيدة اكثر من ٧٥ بيتاً وكلها على هذا النمط الحماسي . وله قصيدة اخرى

(١) العراق للحسيني - ص ١٠٣ (٢) العراق - ص ١٠٧ (٣) ديوانه (١٩٣٥) ص ٤٩

في الثورة مطلعها^(١)

ان كان طال الامدُ فبعد ذا اليوم غدُ

وختيري الهنداوي في الثورة قصيدة طويلة نارية الروح مطلعها^(٢) - ايها الشرق
هل فقدت الشروقا - ومنها مخاطباً وطنه

انت اذنت ام بنوك ام الظلام شاءوا ان يغصبوك الحقوقاً
يبتوا امرهم بليلٍ وجاءوك جميعاً يتلو فريق فريقاً
حاولوا - لا ابالهم - ان يكون الشرق كالعبد مستضاماً رقيقاً
فنهضنا كالأسد في اوجه القوم لنجتث بغيهم والفسوقا
ومنها: ويك لا ارتضي الحياة بذلّ لم فمزق إهابها تمزيقاً
وادر لي في الرافدين حمياً الحرب صرفاً وكسر الابريقا
ان موتاً يكون في ساحة العزّ لموت أجدر به ان يروقا
الى ان يقول -

ليت شعري هل مبصر انا يوماً علّم ابن الحسين فيها خقوقاً
تلك أمنيّتي فلا عيش الا ان اراها تهتر غصناً وربقا

ومن موقدي الشعور الوطني يومئذ الشيخ مهدي البصير شاعر الحلة وهو من
الذين اعتقلوا ونفوا. ومن شعره الثوري المحرّك قوله في قصيدته «لييك ايها الوطن».
ومطلعها^(٣) -

ان ضاق يا وطني عليّ فضاكا
ومنها: بك همت اوبالموت دونك في الوغى
ثق انني سأذبّ دونك باذلاً
فليسخط الغربيّ اني ناهض
كذبتك اقطاب السياسة عهدا
افيطلبون لك الرعاية ضلة
لو انصفوك لحرّوك لانهم
فلتسع بي للامام خطاكا
روحي فداك متى اكون فداكا؟
روحي لارخصها فما اغلاكا
اقصى رجائي ان اتال رضاكا
فلتضمننّ لك الحياة طبكا
ما كان اقصرهم وما احجاكا
ربحوا قضيتهم بطلّ لواكا

ومثل هذه العواطف تتجلى في شعر عبد الحسين الازري، ومحمد ابي المحاسن، وعلي الشرقي، ومحمد الهاشمي، وسواهم. اما الزهاوي والرصافي فلم نر لهما شيئاً من ذلك في ما نشر من شعرهما

اشتعلت الثورة فوقع من ضحاياها مئات من الطرفين . ولم تر بريطانيا بدّاً من مصالحة الثوار فاصدرت منشوراً بالعمو العام . ثم « شكلت » للعراق حكومة وطنية موقفة الى ان يتم انعقاد مؤتمر عربي عام يعين مصير البلاد وشكل حكومتها . وكان فيصل في اثناء ذلك قد انهار عرشه في دمشق، فقرر باتفاق الطرفين انتخابه ملكاً على العراق وصرف النظر عن عقد المؤتمر العام . على ان الشعب استفتي في امر انتخابه فنال ٩٩ بالمئة من الاصوات . وهكذا نودي به ملكاً واحتفل بتتويجه في ٢٣ آب (اغسطس) ١٩٢١

وكان لهذا الحادث التاريخي اثر يذكر في الادب العربي فقد بقي فيه من الحطب والقصائد ما لا يتسع المقام لذكره . واليك نموذجاً منه قصيدة انشدها الزهاوي في حضرة الملك فيصل على اثر قدومه عاصمة الرشيد^(١) وفيها يقول : -

انا محيوك فاسلم ايها الملك	ومصطفوك لعرش شاده الفلك
عرش العراق ضمان للعراق وفي	تأييده الشعب والاحزاب تشترك
الناس من فرح إذ جئت تراسهم	من بعد ما قد بكوا من بأسهم ضحكوا
قد ارتضاك له فاهناً بدولته	الله والناس والتوفيق والملك
هذا السلام يعمّ الرافدين غداً	فلا دمٌ بعد هذا اليوم ينسفك
جري ليلحق ناس بابن فاطمة	حتى اذا تعبوا في جريهم يركوا
من هاشم من قريش من ذوائبها	حيث الوشائج والارحام تشبك
ومنها : الله يا فيصل ما انت مورثه	للغرب من شرف في شكره اشتركوا
في نهضة برجال كنت تراسهم	حيناً لتحرير اوطان بها انسبكوا
عش للريّ فان الشعب اجمعه	مذهباً يفتح عينه به سدك

ولا ينكر انه بتنصيب فيصل استقرت الحال نوعاً في العراق على ان الاماني القومية لم تصل وثبة واحدة الى غايتها . فكأن موقف العرش حرجاً بين السلطة المنتدبة والقومية العراقية المتوثبة لكنّ فيصلاً كان ربّاناً ماهراً فسيّر المركب بين اللجج بوفق وحكمة ، واستطاع قبيل موته ان يوقّع على معاهدة الاستقلال وان يدخل العراق في عصبة الامم

ولم يخل الشعر العراقي في اثناء ذلك من روح التبرم وبرغم النهضة السياسية في العراق وبرغم ما كان يضيء في العهد الفيصلي من انوار الامل والاستبشار ظلّ فريق من كبار ادبائه يغلب عليهم التشاؤم فينفثونه شعراً قائم اللون ناقماً سوء الحال . وزعيم هذا الفريق الرصافي كما ترى في قصيدته للريحاني سنة ١٩٢٢ اذ يقول (١) -

أأمينُ جئتُ الى العراق لكي ترى ما فيه من غرر العلي وحجوله
عفواً فذاك النجم اصبح آفلاً والقوم محتربون بعد افوله
ومنها : واذا وقفت بدارس من مجده فكوفة الباكين بين طولوه
وانحب كما تحب الحزن مكفكفاً غرب الدموع بجاني منديله
ومنها : حال لو افكر الحكيم بكنهه طول الزمان لعي من تعليله
من ذا يبدله فان قوارعي بُئت لعمر الله من تبديله

الى ان يقول . -

من اين يرجي للعراق تقدم وسبيل مملكيه غير سييله
لاخير في وطن يكون السيف عند جبانه والمال عند مجيله
والراي عند طريده والعلم عند غريبه والحكم عند دخيله
وتظهر هذه الروح في قصيدته في حفلة الحزب الوطني البغدادي للمستركراين الاميري (سنة ١٩٢٩) اذ يقول (٢)

واذا تسأل عما هو في بغداد كائن
فهو حكم مشرقى الضرع غربي الملاين
وطني الاسم لكن انكليزيّ الشاشن
قد ملكنا كل شيء نحن في الظاهر لكن...

نحن في الباطن لا نملك تحريكاً لساكن

ومثل ذلك قصيدته « الحرية في سياسة المستعمرين » (ديوانه ٤٢٦) وغادة الانتداب (٤٢٧) وكيف نحن في العراق (٤٣٥) وحكومة الانتداب (٤٣٧) هذا الشعر المتبرّم الناقم كان شائعاً في الاوساط القومية المتشددة ويقابله شعر وطني مستبشر كان ينظر الى الامور بعين الرجاء مؤمناً بالنهضة الجديدة واثقاً بتقدمها. ومن امثله ما قيل في العلم العراقي والنهضة العربية ، وآمال الشباب والملك العربي والسيادة القومية وما الى ذلك، كقول الجواهري من قصيدة في سفر الملك فيصل الى جنيف (١٩٣١) تمهيداً لدخول العراق عصبة الامم^(١). يفتتحها بوصف مناقب فيصل وحسن سياسته وجميل خدمته للعراق ثم يقول

لا ادّعي ان قد اتم غوه من كان امس بشكل طفل حاب
فلتلك ليست بالبعيد منالها عن كل شعب طامح واثاب
لكن اقول اريته مستقبلاً لا بالقديم سناً ولا الخلاب
كالشهد اول ما تذوقه فم ما زال بين لاه طعم الصاب
فاليوم ها هوذا بظلك يحتمي مثل احتماء العين بالاهداب

ومثل هذا القول بل واكثر منه استبشاراً وإيماناً بالمستقبل يتجلى لك في كثير من الشعر الذي نظم في عهد فيصل وعهد خلفه الملك غازي الأول

﴿ الثورة السورية ﴾ ذكرنا ان دمشق كانت بعد الحرب الكبرى اول عاصمة خارج الحجاز نوّدي فيها بالاستقلال العربي . وهاك اول برقية وردت الى بيروت بعد دخول العرب دمشق (وقد نشرت في ٢٤ ذي الحجة سنة ١٣٣٦ بتوقيع الامير سعيد الجزائري) - « بناءً على تسليّات الترك فقد تأسست الحكومة الهاشمية على دعائم الشرف طمنوا العموم واعلنوا الحكومة باسم الحكومة العربية »

ومعلوم ان سوريا بعد الحرب عهد بادارتها المستقلة الى الامير فيصل . ثم حدثت حوادث وجرت مفاوضات سياسية لا مجال لذكرها الآن . وفي خلال ذلك تم لحكومة دمشق تنظيم المؤتمر السوري مثلاً لجميع الاقطار السورية ومنها فلسطين فأعلن في ٧ آذار (مارس) سنة ١٩٢٠ المناداة بالامير فيصل ملكاً دستورياً على البلاد السورية^(٢)

(٢) راجع الثورة العربية (سعيد) ٢ - ٣٠

(١) ديوانه (١٩٣٥) ١٠٦

على ان ذلك الاستقلال لم يطل عهده ففي ٢٥ تموز (يوليو) من السنة نفسها دخل الجيش الافرنسي دمشق فاضطرّ فيصل الى ترك عرشه وأصبحت سوريا داخلة في منطقة الانتداب . وبذلك أخذت تلك النائرة الملكية التي كان السوريون قد بدأوا يغتبطون بها . فبعد ان كان الشعر العربي في حمائم شعر القومية السائدة والوطنية الجذلة والراية العربية الحفاقة اصبح ذكريات مؤلمة كقول الشاعر من قصيدة في وداع فيصل مطلعها^(١) :

أضاعوه وكان فتىً هماما وبالأوطان صباً مستهما
أضاعوا واي فتىً أضاعوا أضاعوا القلب واليد والحساما
فودّع في الدجى تاجاً وعرشاً ومملكةً وآملاً جساما
هو التاريخ عاد فعُدّ اليه وصف غرناطة تصف الشاما
سلاماً يا أبا الغازي سلاماً يعزّ على المروءة ان تضاما
أطعت عصابة ضلّت فكانت بصدر جهادك الماضي كلاما
ولولا ذاك كنت الملك فينا ولكن ابعدوا عنك الكراما
فسادت في رحاب القصر فوضى فلا رأياً هناك ولا نظاما

و كقول الغلاييني من قصيدة نظمها في دمشق (٢ ك ١٩٢٠) ومطلعها - وقفت على الاطلال اطلال قحطان^(٢) -

لئن كنتم من قبل في يد غاصب ضعيف القوى من خمرة الجهل نشوان^(٣)
فانكم ذا اليوم نهبٌ مقسّم بأيدي شداد شرّها منكم دان
وقدتم وسيف القوم يرهف حدّه وما غمده الاّ طلي آل عدنان
وله كثير مثل ذلك

وكذلك خير الدين الزركلي كقوله من قصيدة سنة ١٩٢٢ وهو في عمان^(٤)

أبكى ديارا خلقت للجمال
ابهى مثال

(٣) يقصد الاتراك

(٢) ديوانه ص ٢١

(١) حليم دموس (ديوانه)

(٤) راجعها في ديوانه ٢٤

أبكي تراث العزّ والعزّ غال
صعب المنال
أبكي جلال الملك كيف استحال
الى خيال

وله قصيدة سماها الفاجعة^(١) نظمها على اثر واقعة ميسلون ودخول الجيش الفرنسي الشام ومطلعها -

الله للحدثان كيف يكيد برّدى يغيض وقاسيوت يمدّ
ومنها ما في دمشق لناهض من عزّة وبها سراق غاصب بمدود
بلد تبوأه الشقاء فكما قدم استقام له به تجديد
وبعد ان يصف الجيش وانخزال السوريين لتنافر زعمائهم يقول : -
خدعوك يا أمّ الحضارة فارقت تجني عليك فيالق وجنود
من ذا يكفك أدمعاً مرّاق كالغيث تهطل حسرة وتجود
تسقى بها في الغوطتين مباسم ذهب النواح بماها وخدود

وفي الذكرى الاولى لاستقلال سوريا ينشد الكاظمي في مصر قصيدة مطلعها :
«أفي مثل هذا اليوم طاف المبشّر» تشف عن شعور الناس في ذلك الحين^(٢)
ولو راجعنا ما نظمه كبار شعراء سوريا بعد سقوط العرش القيصلي كمن مرّ
ذكرهم ، وكخليل مردم ، وفارس الخوري ، وشفيق جبيري ، ومحمد البزم ، وفؤاد
الخطيب ، ومحمد الشريقي وبدر الدين حامد واضراهم ، وما نظمه زملاؤهم في سائر
الأقطار العربية والمهاجر ، لوجدنا عليه مسحة من الألم تشف عن أسفهم على ما ضاع
من امانتي وتبدّد من احلام

في خلال ذلك كانت العراق (كما مرّ معنا) تتقد بالثورة ومصر تجاهد تحت لواء
سعد . وقد رأى السوريون نتائج الثورة العراقية والجهاد المصري ، فكان ذلك دافعا
لهم الى تنظيم الكلمة ومناوأة الانتداب

ولم تلبث هذه المناوأة ان انجلت عن ثورة ١٩٢٥

ولسنا نبعث الآن عن الاسباب البعيدة او المباشرة لهذه الثورة فذلك عمل مؤرخيها ، على أننا نقرر هنا انها كانت خطوة كبرى في سبيل الهدف المنشود . فقد انتهت بتنظيم الكتلة الوطنية ، ثم باعلان الجمهورية (سنة ١٩٣٢) وبالاتفاق مبدئياً على معاهدة شبيهة بمعاهدة العراق

وقد نظم في الثورة السورية والحركة الوطنية شعر كثير اشتركت فيه جميع الاقطار العربية . فمن مصر مثلاً شوقي وحافظ ، ومن العراق الرصافي والجواهري ، ومن المهاجر السورية اللبنانية الشاعر القروي والياس فرحات والدكتور جورج صوايا والياس قنصل وابو الفضل الوليد ومسعود سماحه

ومن لبنان وفلسطين مصطفى الغلاييني وعلي الحوماني وابراهيم طوقان وفقى الجبل وسواهم . فاذا أضفت هذه الاسماء الى اسماء شعراء سوريا الذين مر ذكرهم والى اسماء كثيرين في انحاء البلاد العربية ممن لم يذكرنا استطعت ان تقدر ما كان لهذه الثورة من الاثر في الشعر العربي . واننا نشير هنا اشارة خاصة الى دواوين الغلاييني ، والحوماني ، والشاعر القروي ، والياس قنصل وبدر الدين حامد لما يتأجج فيها من نيران تلك الثورة وما تحمله الى الاقطار العربية من حرارتها المتقدة

﴿ الجامعة العربية والروح الاقليمية ﴾ رأينا من الفصول السابقة ان الدعوة للعربية لم تكن قبل الدستور العثماني منظمة او ذات هدف معين بل كانت عاطفة قومية تظهر من حين الى آخر في الادب العربي بمظهر التذكير بالماضي والاهابة بانباء الشرق العربي الى التقدم في سبيل العلى . فلما دخل العرب العهد الدستوري واصبحوا يرون بجلاء ما لهم وما عليهم اخذتهم الغيرة القومية فبدأوا يلهبون بها ، وشعروا ان العنصر السائد في السلطنة يقاومها فازدادوا تعلقاً بها ، ولم يلبثوا ان نظموا الجمعيات والهيئات السياسية ، فانتشرت بينهم دعوة قومية ترمي الى استقلال الاقطار العربية استقلالاً ادارياً

وفي الحرب الكبرى اعلنت الثورة الحجازية باسم العرب والملك العربي ولما وضعت الحرب اوزارها انتشرت الدعوة للجامعة العربية تحت لواء الهاشميين انتشار النار في الهشيم ، وكانت ترمي الى احياء مجد العرب بتنظيم دولة كالدولة الاموية في الشام تضم الاقطار السورية والعراقية والحجازية ثم تتدرج الى سواها

حلمٌ جميل استعذبهُ السواد الاعظم من سكان تلك الاقطار ، وقد كان مصدر الهام لكثير من الشعر القومي والخطب الحماسية . ولن ننسى يوم 'نشر العلم العربي في بيروت وقد استولى فيه على الناس شعور غريب لا عهد لهم به من قبل - شعور الكرامة القومية الحرة . كان الاحتفال في دار الحكومة ، وهاك بعض ما قاله الخطيب « الرسمي » مخاطباً الشعب العربي^(١) -

« ان هذه الراية التي تنشر اليوم هي شعار استقلالك وستكون خافقة فوق رأسك ما خفق فؤادك لها ، فان بقاءها هو اليوم في يديك . فان احببت لها البقاء فاستمت في حبها واعمل على اعلامها بين الامم . ان البلاد العربية اليوم هي بمثابة كتلة وطنية واحدة خاضعة لحكم شريف مكة واميرها ومملك البلاد العربية جلالة مولانا المفدى حسين الاول . واننا لا ننسى ابداً لخلقنا ونخص منهم دولة انكلتوا العظمى المساعدة العظيمة التي قاموا بها فنحونا لحصولنا على هذه النعمة الكبرى »

وقد اقيمت المهرجانات لرفعه في الشام وسائر المدن السورية . ولم يشكك احد يومئذ في ان الملك العربي اصبح امراً واقعاً وان انتصار الحلفاء على الاتراك كان الحجر الاساسي في توطيده

ودارت الايام فاذا بالانتداب يفرض على البلدان العربية . واذا بالحكومات العربية الاقليمية تبرز عوضاً عن الدولة العربية المتحدة ، واذا في الادب العربي فكرتان تتصارعان فكرة الوحدة وفكرة الاقليم

اما الاولى فكانت ولا تزال رسالة الشعر العربي منذ عهد الدستور (١٩٠٨) . وقد راينا كيف برزت بعد الثورة ، وعبثاً حاول دعاة التقسيم اماتها . فهي عند السواد الاعظم من عرب الشرق الادنى رسالة المجد القديم .

فلتقف قليلاً لنرى هذه الرسالة وكيف التف العرب بعد يقظتهم الحديثة الى مجادهم الغابرة .

❦ لفتة الادب الى ماضي العرب ❦

من يراجع الادب العربي في عهده السالفة لا يرى فيه من شأن يذكر للوقفات التاريخية التي تلبس الماضي برود الجلال وتدوّن مآثر الاسلاف باقلام الفخار . خذ مثلاً ما جمعه القُرشي في كتابه « جمهرة اشعار العرب » فهو يضمّ اشهر الشعر العربي القديم من معلّقات ومجهرات ومذهبات ومنقيات وملحقات ومشوبات ومراثٍ ومع ذلك لا تجد بينها ما يدلّ على اهتمام العرب بهذا النوع من الادب . ويصدق هذا الحكم على حماسة ابي تمام وسائر المجموعات الشعرية القديمة والمولدة . ولا نستطيع ان نعدّ النفاخر بالاجداد في مثل شعر ابن كلثوم او الفرزدق واضرابهما من باب الوقفات التاريخية بالمعنى الذي نفهمه الآن فما ذلك الا مباهاة شخصية او قبلية ليس فيها ما يدلّ على شعور عام يحدو الشاعر الى التغني باجداد الغابرين ووصف ابطالهم ومآتهم . وقد يجوز ان نستثني من هذا الحكم العام بعض المنظومات القليلة كسينة البحري التي يصف فيها ابوان كسرى وبنوه « بعجائب قوم لا ישاب البيان فيهم بلبس » . او بعض المراثي القومية كقصيدة ابن عبدون في بني الافطس التي مطلعها - « الدهر يفجع بعد العين بالاثر » وقصيدة ابي البقاء الرندي التي يتدب فيها الملك الاسلامي بالاندلس ومطلعها - « لكل شيء اذا ماتم نقصان » . اما التواريخ المنظومة امثال ارجوزة ابي طالب عبد الجبار التي تسرد في ٤٥٢ بيتاً تاريخ الخلفاء من راشدين وأمويين وعباسيين واندلسيين^(١) فليست الا سرداً عادياً للحوادث ولا يراد به استعراض الاجداد القومية السالفة او التعبير عن روح الأمة وامانيها الكامنة .

وقد كان من المتوقّع ان ينشأ في العهود المختلفة التي تلت عصر الفتوح ما يدلّ على تأثر الادب باعمال الفاتحين ومآتي الابطال ولكننا قلما نعثّر من ذلك على شيء جدير بالذكر حتى ان الحركة الشعبية التي ظهرت في اوائل العصر العباسي وكان الباعث اليها تلك المشادة العنصرية بين الفرس والعرب لم تترك لنا من اقوال المدافعين عن العرب الا بعض شعر ونثر لا يستحق ان يعدّ من باب الوقفات التاريخية . وكذلك قل في تعصّب المتنبّي للعرب وذمه للعجم . فهو مع كونه عربياً صمياً لم يخرج عن نطاقه

الشخصي المحدود الى نطاق القومية الواسع ولم يصرف شعره عن امراء او كهواء يسبغ عليهم حلل المديح او خصوم وحساد يسلقهم بالسنة الهجاء الى تعظيم امته بتعظيم تاريخها والتنويه بمجادها . وذلك عين ما نلاحظه في كل عصورنا الادبية حتى نهضتنا الحاضرة . وهذه الظاهرة التاريخية اسباب منها - ان العرب سابقاً لم يهتموا الا للعصبية القبلية ولم تكن القومية عندهم ولاسيا بعد العصر الاموي متميزة تمام التميز عن الدين . وقد اصاب احد الباحثين اذ قال « ان هذا الفن (الشعو البطولي القومي) يحتاج الى ممارسة وتفرغ وطول معاناة ومثل ذلك لم يكن مهيئاً لادباء العربية الذين كانوا اميل الى تقليد من سبقهم^(١) . اما في هذا العصر فقد تغيرت الحال فان التطورات السياسية والاجتماعية قد جعلتهم يشعرون بكيانهم ففتحوا اعينهم ورأوا سوء حالهم ازاء الامم الاخرى . وهكذا اخذوا منذ اوائل هذا القرن ينفضون عنهم غبار الهوان . وساعدتهم الحرب العالمية الاولى فاصبح لهم دول مستقلة اسماً او فعلاً فكان من الطبيعي ان يلتفتوا الى ماضيهم القديم - الى عهد الفتوح والملك وما تلاه من الازدهار العلمي - تعظيماً لقوميّتهم وارهافاً لهميمهم وحفزاً لابنائهم على السير في سبيل اسلافهم . وفي ذلك يقول علي مصطفى مشرفة^(٢) .

« فكما ان الاوروبيين عندما افاقوا من قرونهم الوسطى عمدوا الى احياء ماضيهم فبعثوا الثقافة الاغريقية وجعلوا منها اساساً لنهضتهم كذلك نحن في الشرق قد هداونا وحي السليقة الى منابع عظمتنا فرجعنا الى ماضينا ليكون قاعدة لصرح تقدمنا » .
ويقول فؤاد صروف^(٣)

« ان الاساس في النهضة الصحيحة هو الاحساس بالكرامة . والاحساس بالكرامة يستيقظ ويستعز بالانساب الى آباء واجداد نفخر بهم وماض نباهي به واجداد نغنيها » .
وهذا الالتفات لا ينحصر في قطر واحد بل هو عام وله ظواهر شتى اهمها ما يلي :

❖ ١ - ذكرى النوايع والابطال ❖ وقد وضع في هذا الباب نثراً عدد كبير من الكتب والرسائل وكلها ترمي الى تخليد عظماء الامة العربية بعرض تاريخهم

(١) راجع فصلا لفخري ابو السعود في اسباب خلو الشعر العربي القديم من البطولة - ارساله (٢٠٠ - ٢٠١) (٢) المقتطف ١٠٠ - ٢٠٣ (٣) المقتطف ١٠٠ - ٢٢٨

ووقائعهم وآثارهم سواء كانوا من رجال السياسة والحرب والادارة ام من رجال العلم والادب والدين^(١). وهو باب واسع جداً وقد طرقه القدماء وخلفوا لنا كثيراً من التراجم والدراسات على انهم لم يعنوا عناية المحدثين بالتمحيص التاريخي والنقد العلمي والتحليل النفسي ولم يهدفوا مثلهم الى تمجيد التاريخ العربي واتخاذ وسيلة لتحسيس الجيل الحاضر ورفع انظاره الى المثل القومية العليا. وقد يتجلى ذلك على اتمه في الشعر الحديث واليك بعض الامثلة وهي 'قل' من كثير -

﴿عمرية حافظ ابرهيم﴾ وهي قصيدة في نحو ١٩٠ بيتاً يعرض فيها الشاعر مناقب الفاروق ومآثره. ومطلعها :

« حسب القوافي وحسي حين ألقيا اني الى ساحة الفاروق أهديها »

ومنها في وصف الدولة الاسلامية بعد مقتل عمر -

فاصبحت دولة الاسلام حائرة تشكو الوجيعه لما مات حاميه
مضى وخلّفها كالطود راسخة وزان بالعدل والتقوى رواسيها
تنبو المعاول عنها وهي قائمة والهادمون كثير في نواحيها
وها على دولة بالامس قد ملأت جوانب الشرق رغداً من اياديها

وبعد ان يعدد اعمال الفاروق ومكارمه يختم القصيدة بقوله -

هذي مناقبه في عهد دولته للشاهدين وللأعقاب احكيها
لعل في امّة الاسلام نابتة تجلو حاضرها مرآة ماضيها
حتى ترى بعض ما سادت اوائلها من الصروح وما عاناه بانيتها
وحسبها ان ترى ما كان من عمر حتى ينبّه منها عين غافيتها

وعلى غرار العمرية بضع منظومات في ابطال الاسلام الأول كعلوية محمد عبد المطلب^(٢) وبكرية عبد الحليم المصري^(٣) وخالدية عمر ابو ريشة^(٤) واشباهها.

(١) راجع من ذلك كتاب اشهر شاعري الاسلام لروحي الخالدي. وروايات زيدان وكتاب حاضر الاندلس وغابرها لمحمد كرد علي وكتاب تراث العرب العلمي لقدري طوقان وسلسلة مقالات آثار العرب العلمية للمؤلف في الهلال مج ٣٠.

(٢) ديوانه والمقطف ٥٥-٤٩١ (٣) المقطف ٥٣-١ (٤) ديوانه (شعر) ٢٣١

ومن هذا الشعر البطولي المُمشد باجماد الماضي ما قيل في عبد الرحمن الداخل وهو الامير الاموي الذي نجا من سيف العباسيين ثم تمكن من دخول الاندلس وانشاء دولة اموية هناك . وقد نظم فيه احمد شوقي موشحاً عنوانه صقر قريش فذكر قصة نجاته ورحيله الى افريقيا ثم ما كان من امره في الاندلس وكذلك فعل خير الدين الزركلي^(١) وسواه .

ومن جعل في مصاف الابطال زنوبيا ملكة تدمر التي اشتهرت ببأسها حتى أصبحت موضوعاً للشعر والنثر^(٢) . وقد أولع ادبنا مؤخراً بالذكريات الألفيّة لبعض نوابغ الرجال كالمُتنبّي والمعرّي وما قيل في هذين الشاعرين نثراً وشعراً لا يقلّ عن عدّة مجلّدات^(٣) . ومن هذا القليل تخصيص بعض المجلّات اعداداً خاصة لذكرى بعض المشاهير وسوى ذلك ممّا نكتفي بالإشارة اليه

❖ ٢ - المأثور من وقائع العرب واخبارهم ❖ ولا نقصد بذلك ما دوّنه المؤرخون من حوادث تاريخية بل ما يعكسه الادب من روح تلك الحوادث وما يقصّه علينا من مستلح النواذر . وقد نقل لنا الرواة عنهم كثيراً من الاخبار التي تبرز فيها مكارم الاخلاق من شجاعة ووفاء وعدل وحكم وكرم ونزاهة كالذي يتناقلونه عن حاتم طيء وكعب بن مامة والسموأل ومعن والاحنف وما يعزونه الى بعض الخلفاء والوزراء والعظماء من اخبار وطرائف تجدها متفرقة في كتب الادب كالآغاني والعقد والفرج بعد الشدة وثرات الاوراق ومصارع العشاق والمستطرف وسيرة عنترة وقصص الف ليلة وسواها . هذا فضلاً عن الوقائع التاريخية التي تشير الى ما بلغوه من عزّ وسؤدد . فلا غرابة ان يجد فيها الادب الحديث مصدر وحى لكثير من الاحاديث الممتعة التي تعبد لنا العهد الأولي مصوّرة بازهى الالوان وتعكس لنا محامد الاسلاف في ذلك الزمان . وقد اتسع لمثل هذه الاحاديث ادبنا المنشور وخصوصاً بابا الترسّل والحطابة واصبح معروفاً شائعاً حتى لا حاجة للتدليل عليه . وعليه فسنكتفي ببعض الامثلة الشعرية - ومنها

❖ قصّة خولة بنت الازور واخيها ضرار ❖ وهي قصيدة لشبلي ملاط في ٩٥

(١) راجع ديوانه (٢) راجع مجلة الكلية ٩ - ٦١ ومجلة المورد ٨ وديوان الملاط - زنوبيا

(٣) راجع في المعري المهرجان الالفني الذي نشره المجمع العلمي العربي بدمشق .

بيتاً تصف بطولة الفارس العربي ضرار بن الازور واخته في حادثة جرت لها عند فتح دمشق على يد خالد بن الوليد . ومطلعها^(١) -

ادموع خولة ام عقيق الوادي ايام نادى للجهاد منادي
وترى خولة اخاها وهو يتأهب للحرب فتبكي فرحاً ثم يأخذان بالحديث عن الجهاد
فيقول ضرار متحمساً

يا خول ان ابي وجدّي استشهدا قبلي على مرأى النبي الهادي
وانا على آثار من درجوا ومن سعدوا من الآباء والاجداد
ويجري في حديثه واصفاً بطولة المجاهدين . فتجيبه خولة متهلهة -

بوركت يا ابن ابي وقُدس والد يُحييه مثل ضرار في الاولاد
ثم تشتعل نيران القتال فيستبسل ضرار في الهجوم على حصن للاعداء ولكن
الاقدار تشاء ان يجرح جرحاً بليغاً فيتمكن الاعداء منه ويأسرونه . ولما بلغ خولة
خبر اسره انتقدت نار الحمية في صدرها وحملت وهي متنكرة بزي فارس من الفرسان
حملة شديدة على الاعداء . ولما رأى العرب هذه الحماسة منها انتقدت حماسهم فاغاروا
معهما وهكذا ربجوا المعركة وانقذوا اخاها من الاسر . يقول الشاعر في ختامها -

ومشى الغزاة الفاتحون ودوّخوا ما دوّخوا من امة وبلاد
قل للألى عزّت بهم اوطانهم وتسودوا من طارف وتلاد
كونوا ضراراً في الجهاد وخولة ان الحدود تعيش في الاحقاد

﴿ واقعة اليرموك ﴾ وعلى ذكر خالد بن الوليد وما يؤثر من وقائعه نذكر هنا
المعركة الفاصلة التي حدثت بين العرب والروم على هذا النهر الصغير الذي يصبّ في
الاردن قرب طبريا . وهي موضوع لكثير من الفخر القومي او التاريخي وما قيل
فيها « وقفة على اليرموك » اولها^(٢) -

على اليرموك قف واقرا السلام وكلّمه اذا فهم الكلاما

(١) ديوان الملائط ٢٨٣

(٢) للمؤلف تجدها في المورد الصافي ٩ - ٢٠١ والهلل ٢٩ - ٢٦٥ والمختارات (السائرة ٢٢٩

وبعد ان يصف الناظم ذلك الوادي يخاطب عرب اليوم مذكراً اياهم بمجدهم القديم فيقول :

ألا هبوا احذثكم بمجد لكم غشي الجزيرة والشاما
الى اليرموك ان تبغوا المعالي وفوق ضفافه فاجشو احتراماً
هنا الاسلام ضاء له حسام غداة استلّ خالده الحساما
وهب ابو عبيدة مثل ليث يجر وراءه الموت الزؤاما
فاصلى الروم حرباً ايّ حرب وفلّ بعزمه الجيش اللّهاما
وسار على روابي الشام يخطو تحرّ له الرّبي هاماً فهاما

وينتقل من وصف المعركة وما احرزه الفاتحون الى حال العرب اليوم وما اصابهم من تأخر وهوان . ويختتم القصيدة بالرجاء ان نجمهم سيشرق من جديد فيعود اليهم ما خسروه من عزّ وما تمتعوا به قبلاً من سلطان .

﴿ مصرع الامين ﴾ ومن الحوادث التاريخية تلك الحرب التي نشبت بين ابني الرشيد الامين والمأمون والتي انتهت بمقتل الاول وطغيان النفوذ الفارسي في الدولة العبّاسية . والى ذلك تشير قصيدة للدكتور رشيد الحناوي مطلعها^(١) - « لمن القباب الباسقان ذراها » وفيها يتحدث عن الخلافة العربيّة وعن مجد العرب منذ ظهور الاسلام الى سقوط عرش الامين ومن قوله -

تعبُ القرون تناولته ساعة ضلّت مسالكها وطاش هداها
هذي جناية هاشم في ملكها غفر الاله لهاشم عقيبها
وهو يرى ان مصرع الامين كان فوزاً للفرس ووبالاً على العرب -

ما إن رأيت عيني كيومك مصرعاً بحق العروبة واستباح حماها
وازاح عن عرش النبي متوجّجاً من اهله واحلّه كسراها
ويدعو في ختامها الى عصبيّة قومية اذ الملك لا يقوم بدونها . ولا جدوى من الاعتماد على الدول القوية -

ما الاقوياء وان أروك ليانة الا ذئاب تستلين شياها
فاذا اصابك منك موضع رقة دلفت اليك بشرّها واذاها

﴿سقوط غرناطة﴾ مأساة قومية مشهورة . وقد تركت أثراً عميقاً في الادب العربي من ذلك قول شوقي في قصيدته الاندلسية التي مطلعها « اختلاف النهار والليل بنسي » حيث يصف عزّها الغابر وكيف جار عليها الزمان فسقطت في يد الاعداء واصبح قصرها الشهير المعروف بالجرء اطلاقاً خاوية لا تزال الى الآن شاهدة بما كان لاصحابها بني نصر من مجد وعظمة . وفي القصيدة ينحي بالأمّة على ملكها ابي عبدالله سياسته التي أدّت الى ضياع مجده ومجد آبائه -

مشت الحادثات في عُرف الجرء مشي النعيّ في دار عرس
هتكت عزّة الحجاب وفضت سدة الباب من سير وانس
ومفاتيحها مقاليد ملك باعها الوارث المضيع ببخس
رُبّ بانٍ لهادم وجموع لمشت ومحسن لمخس

وفي الجرء وغير الجرء من الوقائع المؤثرة والحوادث الهامة اقوال كثيرة^(١) ومثلها ما نقلوه من نواذرهم الدالة على مكارم اخلاقهم ونجرتىء منها بقصيدة لالياس فياض موضوعها « الوفاء »^(٢) . وهي تدور على ما جرى للأمير الأموي ابراهيم بن سليمان بن عبد الملك يوم فرّ من سيف السفّاح العباسي واحتمى عند رجل كان الامير قد قتل والده وهو لا يعرف الرجل ولا الرجل يعرفه . يبدأ بقوله : -

رَبّة الشعر عن رجال الوفاءِ حَدَّثِينا وابغي جميل الثناءِ
حَدَّثِينا عن قومنا العُرب اهل المجد قدماً والهمّة القعساءِ
عن رعاةٍ جاءوا عراةً من الفقر فعازوا ملكاً على الدنياِ
رفعتهم خلالهم قَتساموا ثم هانوا من بعد ذاك العلاءِ
وبناءُ الاخلاق اعلى واقوى من بناء المعازل السماءِ

ويتقدّم من هنا الى ذكر ما كان بين الامويين والعباسيين والى فرار الامير ابراهيم وانتحائه جانب المدينة حيث يدفعه الخوف الى منزل يراه امامه فيقول له رب المنزل من انت فيجب انني عائدٌ مستجير من اعداء يطاردوني فيرحب به دون ان

(١) راجع منها قصيدة « على اطلال الجرء » في الهلال ٣٠ - ٢٣٣ وقصيدة لشقيق المعلوف في المقتطف ٨٠ - ١٣٧ . والايادة الاسلامية لاحد محرّم في الرسالة ٨ - ٤٠٤ . وثورة بدر محمود اسماعيل في الرسالة ٢ - ٢٠٥٠ . ويوم حطين لعبد المحسن الفاطمي في ديوانه (٢) ديوانه . والمورد الصافي ٩ - ١٠٨

يسأله عن اسمه ويفرّد له حجرة يقيم فيها على الرحب والسعة . وتمضي بضعة أيام والضيف على هذه الحال على انه يلحظ ان مضيفه يخرج كل صباح من المنزل خروج مستعد لنزال ثم يعود عند المساء وعلى وجهه اماراة الكأبة . فيسأله يوماً عن ذلك فيقول ان لي ثاراً عند شخص اسمه الامير ابراهيم بن سليمان فاننا اخراج كل يوم باحثاً عنه والى الان لم اظفر ببغيتي من قاتل والدي . اما الامير -

فلو أنّ الجبال دكّت عليه لم ترعه كهذه الأنباء
عجباً ساقه القضاء الى بيت الدّ الحُصوم والاعداء

فيلبث هنيهة من الزمن واجماً من هول ما يسمع ثم يذكر ما لقيه من كرم مضيفه فيضبط نفسه ويقول للرجل - انا ادلك على خصمك فاني اعرف مكانه . فيدهش الرجل ويقول منفعلاً من هو ؟ فيجيبه انا هو انا قاتل والدك فاثار مني واسفك بعدلٍ دماي . ويظنّ صاحب المنزل لاوّل وهلة ان ضيفه قد جنّ . ولكنّه ما كاد يتحقق صدق قوله حتى ثارت في نفسه عاطفتان عنيفتان عاطفة الثأر لوالده وعاطفة الواجب لضيفه . وبعد جهاد نفسي شديد تغلب الثانية على الاولى -

قال : كن من تشاء انّك ضيفي وهو عندي من اقدس الاشياء
لست والله خافرا ذمّي معك وقد نلت من طعامي ومائي
ويختم الشاعر قصيدته مباهياً بمحامد الاسلاف فيقول -

تلك آباؤنا وذاك تراث المجد منهم باقٍ الى الانباء
شرفٌ في سماحةٍ ، وذكاءٌ في وقارٍ ، وقدرةٌ في وفاءٍ

٣ - ذكرى الامصار والاثار ❀ وهي تدخل في بابين - ما يرجع الى العهود الاسلامية وما يرجع الى عهود سابقة . والقول فيها واسع . ومن الاول قصيدة لجمل الزهاوي في « المستنصرية » بالعراق وكانت قبلاً تفاخر بمعهدا العلمي وهو الان طولون دارسة . يقول الشاعر - واصفاً ما رآه منها -

وقفتُ على المستنصرية باكباً ربوعاً بها للعلم امست خواليا

تهبّ رياح الصيف في حُجراتها فتلبسها ثوباً من النعق هايباً
وتسعى على الجدران منها عناكبٌ تُجدّد لها في ما تداعى ميانها

ثم يسأل تلك الدار عن عهدها الماضي ورجالها الاعلام وكيف انقلبت بها الحال
بعد ان كانت شمساً مضيئة في سماء الشرق وكان الغرب غارقاً في لجة الظلام .

فقالَت أُمّت حادّاتٌ عظيمةٌ وجرّت على هذي البلاد الدواهي
هناك اضمحلت دولةٌ عربيّةٌ بها كانت الايام ترفع شانها
فكابدتُ منهنّ الصروف نوازلاً وقاسيتُ منهنّ الخطوبَ عواديا

ومن ذلك ايضاً قصيدة لمحمود الجبوي موضوعها بين قصور المتوكل^(١) . وقصيدة
لحسين وصفي رضا^(٢) وقصيدة الرصافي (سوء المنقلب)^(٣)

واكثر ما يذكر من الامصار الاسلامية الحواضر التي زهت في الشرق والغرب
كدمشق وبغداد وقرطبة واشبيلية وغرناطة والقيروان وسواها . ولا غرابة فان
هذه الحواضر تمثل عهوداً ذات مجد لا يُنسى في تاريخ الاسلام وفي طليعتها بغداد
التي تغنى بماضيها عدد من الشعراء^(٤) .

ولم يكن اهتمام الادب الحديث بالاثار الاسلامية ليحول دون اهتمامه بما سبق
الاسلام وهذا قد يكون عربياً او يمتّ الى العرب بصلة ما كُتدمر ومأرب وبيتوا
وضعاء وسواها . او قد يكون غير عربي كعبلبك وصور والمدائن والاقصر وانطاكية
وغيرها من خواضر الامم السالفة التي سنشير اليها بعد .

﴿ حضارة العرب ومدنيتهم في التاريخ ﴾ - اي ما قاموا به من جليل الاعمال
وما خدموا به العمران البشري كقول اديب اسحق واصفاً دولة العرب وفتوحها^(٥) -
« شعلة سرت من الحجاز فانارت الشام والعراقين والمغرب والهند . واتّصلت باطراف
الفرجة فملأتها نوراً وناراً . فهي بنورها تستضيء ومن نارها تقتبس » . ثم يذكر
فتوح العرب فيقول على طريقته الخطابيّة - « فسارت اسود رجالها على طيور خيولها

(٢) المقتبس ١ - ٩٣٥

(١) راجعها في مجلة الكتاب ٢ - ٣

(٤) مثل علي الجارم ديوانه ١ - ١٣٩ واياليا ابو ماضي

(٣) المقتبس ٢ - ٤١٩

(٥) راجع مقاله في الدرر ٢٠٠

المقتطف ٥٥ - ٣٤٤

تطوي الصحاري وتقطع الغداف حتى نطحت بروقي عزها شرفات الايوان ونسرت
من الشرق نسر الرومان، ونشرت على مصر اعلامها، وضربت في الاندلس خيامها .
وفي النثر الحديث كثير من مثل هذا الالتفات الى ماضي العرب وكثيراً ما يقترون
بمقابلة الماضي بالحاضر والاهابة بعرب اليوم الى النهوض من حالة الهوان وتلافي امرهم
قبل فوات الاوان . ولا يقصّر الشعر عن النثر في ذلك . ومن امثله قصيدة لحبيب
العبيدي موضوعها « العرب الكرام » وهي تقع في ١٤٠ بيتاً كلها مفخرة بفتوح
العرب تحت لواء الاسلام وخدمتهم للحضارة والعمران . كقوله (١) : -

بدا النور من بطحاء مكة ساطعاً فضاءت به في ارض يثرب دُورها
فمزّق ايواناً لكسرى مشيداً واخذ نيراناً شديداً زفيرها
واجفلَ منه قيصر فوق عرشه ودلت له بصرى ودكت قصورها

وبعد ان يعدّد الاقاليم التي افتتحوها في الشرق والغرب يقول مفخرة بحضارتهم

وكلّ بلاد قد وطئنا صعيدها غدون رياضاً زاهيات زهورها
وانبتن احساناً وعدلاً وحكمةً وعلماً وفضلاً زخارات مجورها
ومن هذا الباب قصيدة لعمر ابو ريشه موضوعها « لمحة » ومطلعها (٢) -

أوقفني الركب يارمال البيد إته تاه في مداك البعيد
وفيها يصف بزوغ الوحي النبوي في سماء الصحراء ثم يذكر ما كان بين النبي
وقريش وكيف توّطد الاسلام في الجزيرة فدفع العرب الى الفتح

وقفت موجة الهدى تغسل الشّرك وتروي النفوس بالتوحيد
فرمت بالكتائب الحرس روما وبابطالها الغزاة الصيد
وضفاف اليرموك تُرسل منها زفرات الحدا لابن الوليد

وامّة مثل هذه عرف لها التاريخ الوقائع الغرّ في فارس وغير فارس وانتشرت
حضارتها في الشرق والغرب هي عند الشاعر

امّة يعربية تركت في مسمع الدهر آية التمجيد
ولكن ابناءها لم يطل بهم الحال حتى تنابدوا فضعفوا وذلّوا -

(١) راجع القصيدة في كتاب الادب المصري في العراق (بطي) ١ - ١٣٤

(٢) راجعها في ديوانه الاول ١٢٩

وخبث نارهم وُصِبَ عليهم عاصفات التعذيب والتنكيد
وانتهت سيرة الجدود الينا فجررنا القيود إثر القيود
والتفتنا فلم نجد غير ملك مزقه اصابع التبيد
وهنا يلتفت الى عروس الرمال وشمس المجد القديم طالبا منها ان توصل اشعتها
لعل القوم يستيقظون من سباتهم وينهضون من كبوتهم .

ويقف شاعر آخر على « طاق كسرى وهو من آثار الفرس في المدائن » فيناشده
ان يحدث العرب عن مجدهم القديم فيقول من قصيدة^(١) —

يا طاقَ كسرى ويا بُقيا مدائنهُ وقد طوى الدهر عنه كلَّ ما نشرَا
خبر بني يعرب عن مجدهم وأعد على المسامع من تاريخهم سُورَا
هذا المجد الذي اصبح اطلالاً باليةً « نستمد القوى من وحي ذكرها^(٢) » .

وقد ترى من المشيدين بتاريخ العرب وحضارتهم القديمة من يندد بالحضارة الحديثة
الآتية من الغرب وهو يخشى ان تطفئ على الشرق وتجرف شبابه في تيارها . وفي
مقدمة هؤلاء مصطفى لطفي المنفلوطي الذي يدعو الى تنشئة الجيل الجديد تنشئة
شرقية عربية فيقول^(٣) — « ان دعوناهم الى الحضارة فلنضرب لهم مثلاً بحضارة بغداد
وقرطبة وثيبة وفينيقيا لباريس وروما وسويسرة ونيويورك . وان دعوناهم الى
مكرمة فلنتلّ عليهم آيات الكتب المنزلة واقوال انبياء الشرق وحكمائه لا آيات
روس وباكون ونيوتون وسبنسر . وان دعوناهم الى حرب ففي تاريخ خالد بن الوليد
وسعد بن ابي وقاص وموسى بن نصير وصلاح الدين ما يغينا عن تاريخ نابوليون
ولنجتون وواشنطن ونلسون وبلوخر . وفي وقائع القادسية وعمورية وافريقيا
والحروب الصليبية ما يغينا عن وقائع واترلو وترافلغار واستوليتز والسبعين » . ومثل
المنفلوطي عدد غير قليل من الذين يقفون موقف الحذر من حضارة الغرب ويدعون
النشئة الجديدة الى الاقتداء بأسلافهم واتخاذ السبل التي سلكوها نحو اهدافهم .

قد يقال ان الادب العربي الحديث لم يقف عند حد المفاخرة باجداد العرب فان

(١) مجلة الاعتدال (النجف) مج ٦ ع ٣

(٢) راجع ايضاً قصيدة « على طلل » لمحمود غنيم في رساله ٣ - ١٩١٠

(٣) راجع مقاله « المدينة (الغربية) في النظرات

له لفتات الى امم اخرى سبقت العرب وتركت آثار حضارتها في الشرق العربي .
ومنهم مثلاً الفينيقيون الذين زهوا على ضفاف بحر الروم الشرقية وقد عرفوا بعمرائهم
التجاري والصناعي وما قدموه للعالم من اسباب الرقي . والى ذلك يشير خليل المطران
اذ يقول من قصيدة :

اهل فينيقيا سلام عليكم يوم تقنى بقیة الادهار
لكم الارض خالدين عليها بعظيم الاعمال والآثار

ومثله سليم حيدر في قصيدته « بعلبك »^(١)
وفي الفينيقين ومآثرهم يلهج عدد من ادباء لبنان في هذا العصر

ومنهم قدماء المصريين الذين كانوا من اعظم الامم القديمة ومن واضعي اسس
العمران البشري فلا عجب ان يقول فيهم شاعر مصر :

مشت بمنارهم في الارض روما ومن انوارهم قبست اثننا
ولهذا الشاعر وسواه قول كثير فيهم وفي مآثرهم^(٢).

وهناك اليونان والرومان وآثارهم منتشرة في الشرق العربي - بقايا هياكل
وقصور وملاعب وطرق وتماثيل وهي تنعكس لنا في الادب الحديث بصور شتى من
الافصاف والذكريات^(٣).

ومن قبيل الالتفات التاريخي استحياء ما جاء في الاخبار المقدسة والاساطير القديمة
وليس ذلك بالشئ القليل في ادبنا الحديث^(٤).

(١) راجعها في الاديب (بيروت) ٥ ج ٦

(٢) راجع لاحمد شوقي في ديوانه - قصائده « ايها النيل » و « قفي يا اخت يوشع » و « درجت
على الكثر السنون » ، ولمحمد الهراوي - « ابو الهول » في مجموعة احسن ما كتبت (دار
الجلال) ١٦١ ، ولعبد الرحمن شكري - قصيدة في الرسالة (مصر) (العدد ١٥٩) ، ووقفه للمطران
- المتظف ٦٤ - ١٢٩ ، ووقفه لراجي الراعي - المتظف ٨٧ - ٥٦٥

(٣) راجع قصيدة « على شلالات دفتي » في مجلة الكلية ١٥ - ٢٨٥ والمورد (صافي) ١٤ - ١٢٥
(٤) راجع من ذلك - مريم المجدلية وقدموس وعشترتوس لسعيد عقل ، وشمشون لالياس
ابوشيك في ديوانه افاعي الفردوس ، وسدوم له في المكشوف ٢ ع ٧٢ ، ومن اعماق الجبل
لصلاح لبكي ، والبعث الاول لعلي محمود طه (ديوانه) ، وطوفان نوح لعبد اللطيف (نشر الجلال
٢٠ - ١٢١٨ ، والرزلة المبودة لرثيف الحوري البرق ٢٩٩ - ٣٤٢ ، والفداء لجمد طرابلسي - الرسالة
٥ - ٥٦٢ ، والام لخليل الهنداوي - الرسالة ٣ - ١٢٢٤ .

قد يقال كل ذلك—وهو لا شك صحيح . على ان الروح السائدة في الادب العصري الحديث هي المستمدّة من تاريخ العرب وحضارة لغتهم . هي تلك المباهية بماآتي امجادهم والداعية الى تأخيمهم وتضامن اقاليمهم . ولقد رأينا كيف تقلّبت بها منذ بدء النهضة شتى الاحوال السياسية وكيف صارتها النعرات الاقليمية حتى كادت تحجب او تموت . على انها ما زالت حيّة في الادب ولم تعدم في خلال محنتها ما يوقد نارها ويشبّ اوارها . ومن ذلك قضية فلسطين وما اصاب الحسين بن علي وابنه علي ثم موت فيصل الاول وابنه غازي وغير ذلك من الحوادث الهامة . اصف الى ذلك ما أحدثته وطأة الانتداب من ثورات وما نشأ في نفوس العرب بعد الاستقلال من مطامع وآمال^(١) .

فلسطين تعدّ قضية قومية عامّة ولذا نرى الادب العربي في كل قطر يعطف عليها ويهتم بمصيرها . ولو جمعت الاقوال التي قيلت فيها منذ بدء الانتداب البريطاني في هذا العهد لملاّت عدّة مجلدات . ومن اراد ان يعرف الشعور الادبي العام فليطالع ما نظمه الادباء في هذا الموضوع وهو كثير لا يحصى^(٢) .

ولعلّ شعر المرحوم ابراهيم طوقان (نابلس) اصدق مرآة لحال فلسطين السياسية والاقتصادية وهي في طور الانتداب . ونقثاته الوطنية الحارّة منشورة في مختلف الصحف كالبرق وفلسطين والدفاع والمعرض والجامعة الاسلامية وسواها^(٣) .

والذي يشاهد ما آلت اليه القضية الفلسطينية وما دهمى ابناء العربية في البلاد المقدسة يرى صدق ما تنبأ به هذا الشاعر الشاب اذ قال من ابيات له —

يا حسرتا ماذا دهمى اهل الحمى فالعيش ذلّ والمصير بوار

(١) لمعرفة ما نشأ عن ضغط الانتداب من تقوية الدعوة الى الجامعة العربية ، راجع مقال

عبدالرحمن شهبندر . الهلال ٦١ - ٧٥١

(٢) راجع منه الامثلة التالية : قصيدة مهدي الجواهري « فلسطين الدامية » ديوانه (١٩٣٥)

١٧٦ . قصيدة بشارة الخوري « جهاد الجبايرة » الرسالة مصر ٦ - ١٩٧٢ قصيدة البقوي

« النظرات السبع » مطبوعة على حدة . قصيدة امين ناصر الدين في ديوانه الاطام ١٩٢ .

قصيدة محمود حسن اسماعيل في « هكذا اغني » ٢٣٣ . قصيدة محبوب الشرتوني ديوانه ١٢٦

قصيدة الشاعر القروي « وعد بافور » في الاعاصير . مجموعة الفلستينيات لجمعية الرابطة العلمية

في النجف .

(٣) وقد جمعت شقيقته شعره ونشرته في ديوان خاص

ارابت اي كرامة كانت لهم واليوم كيف الى الاهانة صاروا

اما الحسين ملك الحجاز ومُعلن الثورة العربيّة ففي انتقاله الى قبرص ،
عقب الحرب السعودية الهاشمية ثم في موته عبّر حرّكت العواطف القومية وأثارت
الشعور الادبي العام فتأجج في كثير من النثر والشعر . واليك بعض القصائد التي
قيلت فيه وهي قلّ من كثير ، بل وشل من بحر

فلشوقي مرثاته : -

لك في الارض والسماء مآتم قام فيها ابو الملائك هاشم
ولناصر الدين : -

ابا الملوك اجب ابناءك النجبا فقد دعوك وقم فاستقبل العربا
ولفؤاد الخطيب : -

هي المواكب فاشهد كيف تبندر كالسيل مصطخب التيار ينحدر
اوقت تودّع جثمان الذي نُعيت الى الجزيرة في اكفانه مضر
ولشفيق جبوري : -

تلکم قريش وما جفّت عواليها على الحطيم ولم تنشف مواضياها
من ذاكر في ظلال البيت ثورتها والعهد غير بعيد عن لياليها
ولا ابراهيم طوقان - ذكرى ثورة الحسين : -

اطلقي ذاك العيارا قدك ضيماً واصطبارا
يُطلب العز ابتدارا يدرك المجد اقتسارا

ولاسكندر الحوري البيتجالي : -- حيّ البطولة والعلی
ولبدر الدين حامد - في خلافته

تاج مجد الخلافة انتظما فوق رأس الخليفة العربي
كم لبثنا السنين في وجل وذرفنا مدامع الحرب
وله في منفاه الى قبرس : -

اسرفت فيما جثته يا زمان فما لعهد منك يوماً امان

وللبجواهرى في ذلك : -

هي الحياة باحلاء وامرار تمضي شعاعاً كزند القادح الواري
وله مرحّباً بالحسين الى العراق : -

ارى الشعب في اشواقه كالمعلّق لما حدّثوه عنك يرجو ويتقي

وشبيه بما قيل في الحسين ما قيل في ابنه الملك علي فقد نظمت فيه مرات وطنية
تشف عن شعور العرب في مختلف الامصار نذكر منها هنا قصيدة شبلي ملاط : -

امن جرح على جرح دميّ الام يصاب بيت الهاشمي
فما كاد الحسين يغيب حتى تهاوت شهب فيصل والعلي

على ان الفجيرة الكبرى عند ادباء العرب كانت موت فيصل وقد اقيمت له ماتم
في مختلف الاقطار العربية وفي المهاجر . والاقوال فيه كثيرة فهو عند الجميع بطل
العروبة وحامل لواؤها . واليك على سبيل التمثيل بعض ما وصلنا من المراثي فيه : -

لجميل الزهاوي - فجمع المشرقين خطب جليل
لامين الريحاني - حلق النسر في الفضاء بعيداً - (وهي قطعة من الشعر المنشور)
لبشاره الخوري - لبست بعدك السواد العواصم
لمحمد البزم - رُم عظيمًا اذا أردت خلوداً
للدكتور أبي شادي - هكذا هكذا شعوب تُيتم
لعلي محمود طه - تألق كالبرقة الحاطفة
للشاعر القروي - أقص التجلّد ان العقل منهزم
لوديع البستاني - قمر - وبنت الفجر - والثقلان
لحليم دموس - هوى من سما عليائه بعد ان سما
لابراهيم طوقان - شيعي الليل وقومي استقبلي
لصلاح البابيدي -

فالموت من جند المليك الاعظم
لصالح الرفاعي - علم العروبة غار في العلياء
لهفي على الاسلام والعرباء
لعبد المسيح محفوظ : عبقرى الملوك أي فؤاد
اسكتته يد الزمان العادي

هذا فضلاً عن كثير من الاناشيد الشجيرة، وكمثال لها نثبت بعض فقرات من نشيد الكشاف المسلم في صيدا: - دافعت بالصدق عن حرمة الحق والناس قد كانت في الغرب والشرق

تراك يا فيصل

تراك يا فيصل

اليأس قد أبلى في الناس واستولى

في رحبة الوادي عروبة ثكلي

تفديك يا فيصل

تفديك يا فيصل

وقس على ما ذكر ما لا يمكن حصره هنا من الخوارج الشعرية والنثرية في شتى الاقطار العربية .

وقد تجددت العواطف القومية بموت الملك غازي وبما قيل فيه من مراثٍ تفيض بالشعور العربي. فكان مأثمه في العراق مظهراً قومياً شاركت فيه العراق سائر الاقطار العربية^(١) ولسان حالها يردد مع الشاعر المصري علي الجارم

اتينا لنقضي للعروبة حقها يسابق وفدٌ في تلهفهِ وفدا

فلسنا نبعد عن الصواب اذا قلنا انه على الرغم من اختلاف الاغراض السياسية وتشابك المصالح الاقليمية وتضارب النزعات الشخصية ظلّ الادب العربي شديد التأثير بالرابطة العربية العامة .

* * *

ولا ينكر ان القومية الاقليمية لا تزال اقوى العوامل السياسية في البلدان العربية وربما ظلت كذلك احقاباً طويلة . وقد كان من الطبيعي ان تتطور فكرة الوحدة حتى في الادب نفسه . فان الشعور الادبي اليوم غير ما كان يوم دخل فيصل الاول دمشق - كان الشعور يومئذٍ دعوة شديدة لتأسيس المملكة العربية المتحدة ذات العرش الواحد ولارجاع المجد العربي القديم . ولكنه لم يبق كذلك بل تطوّر

(١) راجع اقوال الوفود المختلفة في جريدة بيروت المديين ٧٦٢ و٧٦٣

بتطوّر الاحوال فتدرّج من الوحدة الى الاتحاد - والاتحاد غير الوحدة - ثم اصبح اخيراً دعوة الى تحالف اخويّ يشدّ ازركل اقليم ولا يمس استقلاله وعلى هذا نشأت جامعة الدول العربية .

على ان الشعور العربي الادبي كما راينا لا يزال يحلم بمجد القومية الكبرى القائم على التعاون العام وذلك منعاً لهذا التفكك الذي لمسنا ضرره الجسيم في النزاع العربي الصهيوني والذي يخشى ان يقودهم في المستقبل الى هوة الشقاء

فكما ان افراد الاسرة الواحدة قد يستقلون بعضهم عن بعض وتبقى مع ذلك رابطة الاسرة بينهم، حتى اذا أمت بهم ملّة كانوا يدّاً واحدة فلا يتسنى لاحد ان يستعبدهم او يستذلهم، كذلك مصر وسوريا والعراق ولبنان وسائر الدول العربية المستقلة متسير كل منها في موكب الحضارة والتقدم على طريقها الخاصة دون ان يقضي ذلك على روح التعاون الفعّال بينهم

وانك لتلمس هذا الشعور في كل قطر عربي اليوم فليس بغريب ان تسمع لبنانياً يقول في وطنه^(١)

عربيّ النجار شدّ عراه بالوائين عبد شمس وهاشم

وآخر يقول في ابناء العرب من قصيدة^(٢)

وهل هم غير اخوان فيحظوا ويشقوا في مساعيهم سوّية
لنا بلساننا وطن كريم وفي تاريخه صلة قوية

ومثلها كثيرون في لبنان . وها ان الادب المصري قد اخذ يتجه هذا الانحاء داعياً الى الاخاء والاتحاد والوثام في ظلّ العروبة^(٣). اما العراق وسوريا فقد كان ادبهما ولا يزال رامياً الى تعزيز العروبة والتغني باجهاها . وقل كذلك في سائر الاقطار

(١) من مرثاة بشاره الخوري في فيصل (٢) مجلة الكلية (بيروت) حزيران ١٩٣٦

(٣) راجع من ذلك : قصيدة لاهمّد محرّم في جريدة النداء (بيروت) ٧ حزيران سنة ١٩٣٣ وقصيدة العروبة لعلي الجارم ، ومفخرة الرشيد للدكتور ابي شادي ، ودويوان محمود ابو الوفا ٨٦٠ وسواها .

تلك هي رسالة الادب القومي اليوم . وقد كاد الزمان يحققها في جامعة الدول العربية وما تهدف اليه من وئام ، واصبح في صدور العرب على اختلاف اقاليمهم وثقافتهم واصولهم ونحلهم امل بنهضة قومية عظيمة تجعل من مجموعة دولهم مع المحافظة على استقلال كل منها جبهة قويّة تجاه المطامع الاستعمارية ونظاماً صالحاً لتحسين احوالهم الاقتصادية والاجتماعية . فهل يتم لهم ذلك على اساس ثابت من الاخلاص والايان والعمل ، ام يظلون على حالهم من الضعف والتأخر بين اقطاعات تذلهم وطائفة تعيمهم وفوضى اخلاقية وسياسية تشلّهم وتمنعهم عن مجاراة الامم الحيّة الراقية ؟

ذلك ما نترك الجواب عنه للزمان !



تمّ الجزء الاول من هذا الكتاب ويليه الجزء الثاني وهو قسيمان .
يتناول الاول منها النهضة الاجتماعية في العالم العربي وما ينعكس عن
الحياة الشعبية العصرية من آثار ادبية . ويتناول القسم الثاني النزعات الفنية
في ادبنا الحديث والعوامل الفعالة في تطورها .

وينتهي الكتاب باستدراكات عامة وفهارس وافية للمراجع والمباحث والاعلام.

Handwritten text in Urdu script, appearing as a paragraph of approximately four lines.

Handwritten text in Urdu script, appearing as a single line.

